الحَيَاءُ

خُلُقُ الإِسْلَامِ

"إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ"

حديث شريف

إعداد

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

عفا الله عنه



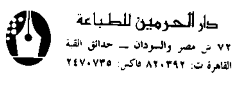
دار طيبة

الحَيَاءُ

خُلُقُ الإِسْلَامِ

الطبعـة الأولـى

١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م



الحياء

خلق الإسلام

« إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء »
حديث شريف



إعداد
محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم
عفا الله عنه





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه ، وصلَّى الله على أشرف من اجتباه ، عبدِه ورسولِه القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1]، وعلى مَن صاحَبَهُ ووالاه ، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا ، لا يُدْرَكُ منتهاه .

أما بعـــــد ،،،

فإن الحياء من أبرز الصفات التى تنأى بالمرء عن الرذائل ، وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق ، وحمأة الذنوب ، كما أن الحياء من أقوى البواعث على الفضائل وارتياد معالى الأمور .

معنى الحياء :

الحياء مشتق من الحياة ، والغيث يُسمى حَيًا - بالقصر - لأن به حياةَ الأرض والنبات والدواب ، وكذلك سميت بالحياء حياةُ الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء له فهو ميتٌ فى الدنيا ، شقىٌّ فى الآخرة ، قال بعض البلغاء : « حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه » .

وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوةُ خُلُق الحياء ، وقلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياءُ أتم .

الحياء مفتاح كل خير :

ويكفى الحياءَ خيرًا ، كونُه على الخير دليلًا ، إذ مبدأ الحياء انكسار

(١) رواه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه البخارى فى « الأدب المفرد » رقم (٢٧٣) ، وابن سعد فى « الطبقات » (١٩٢/١) ، والحاكم (٦١٣/٢) ، وأحمد (٣١٨/٢) ، وقال الحاكم : (صحيح على شرط مسلم) ، ووافقه الذهبى ، وصححه الحافظ ابن عبد البر .

وانقباض يلحق الإنسان مخافة نسبته إلى القبيح ، ونهايته ترك القبيح ، وكلاهما خير ، عن أبي نجيد عمران بن حصين الخزاعي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الحياء لا يأتى إلا بخير »[1]، فقال بُشَيْرُ بن كعب[2]: « مكتوب فى الحكمة[3] أن منه وقارًا[4]، ومنه سكينة[5] » ، فقال عمران : « أحدثك عن رسول الله ﷺ ، وتحدثنى عن صحفك ؟ » .

ورواه حميد بن هلال عن بشير بن كعب عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « الحياء خير كله » ، فقال بشير : فقلت : « إن منه ضعفاً ، وإن منه عجزاً »[6]، فقال : « أحدثك عن رسول الله ﷺ ، وتجيئنى بالمعاريض[7] ؟ لا أحدثك بحديث ما عرفتك » ، فقالـوا :

(١) أخرجه البخارى فى الأدب : باب الحياء ، ومسلم رقم (٣٧) ، وأبو داود (٤٧٩٦) ، وأحمد (٤/٤٢٧) .

(٢) بضم الموحدة ، وفتح المعجمة مصغرًا ، العدوى البصرى التابعى الجليل .

(٣) الحكمة : هى العلم الذى يبحث فيه عن أحوال حقائق الموجودات ، وقيل : العلم المتقن الوافى ، كذا فى « الفتح الربانى » (١٩/٩٣) .

(٤) أى : حلمًا ورزانة .

(٥) أى دعة وسكونًا ، وفى رواية لمسلم : « إن منه سكينة ، ووقارًا لله ، ومنه ضعف » [قال الحافظ : (وهذه الزيادة متعينة ، ولأجلها غضب عمران) اهـ . ، وقال فى « الكواكب » : (إنما غضب لأن الحجة إنما هى فى سنة رسول الله ﷺ ، لا فيما يُروى عن كتب الحكمة ، لأنه لا يدرى ما فى حقيقتها ، ولا يعرف صدقها) ، وقال القرطبى : (إنما أنكر عليه من حيث إنه ساقه فى معرض من يعارض كلام النبوة بكلام غيره ، وقيل : لكونه خاف أن يخلط السنة بغيرها ، وإلا فليس فى ذكر السكينة والوقار ما ينافى كونه خيراً)] اهـ . من « الفتح الربانى » (١٩/٩٣) .

(٦) معناه أنه قد يستحيى أن يواجه بالحق من يستحييه ، فيدع أمره بمعروف ونهيه عن منكر ، وقد يحمله على إخلاله ببعض الحقوق وغير ذلك مما يُعرف عادة .
والجواب عن ذلك : أن هذا المانع ليس من الحياء حقيقة بل هو عجز وخور ومهانة ، وإنما يطلق عليه أهل العرف حياءً مجازًا ، أما الحياء الحقيقى فهو خُلُق يبعث على ترك القبيح ، ويمنع من التقصير فى حق كل ذى حق .

(٧) جاء عند مسلم وأبى داود: (فغضب عمران حتى احْمَرَّت عيناه) ، قال النووى رحمه الله:=

« يا أبا نجيد إنه طيب الهوى[1]، وإنه ، وإنه ،.. فلم يزالوا به حتى سكن ، وحَدَّث » .

= (وأما إنكار عمران رضى الله عنه فلكونه قال : « منه ضعف » بعد سماعه قولَ النبى ﷺ : « إنه خير كله ») .

ومعنى قوله : « وتجيئنى بالمعاريض » أى تأتى بكلام فى مقابلته ، وتعترض بما يخالفه .

(١) جاء عند مسلم : « إنه مِنَّا أبا نجيد ، إنه لا بأس به » ومعنى طيب الهوى: أى طيب القلب لا يقصد سوءًا ، قال النووى : (وقولهم : « إنه منا لا بأس به » معناه : ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة وغيرها مما يخالف به أهل الاستقامة والله أعلم) اهـ .

تنبيـــه : نستطيع فى ضوء ما تقدم أن نرد ما زعمه الراغب فى « الذريعة » (ص ١٤٥) من أن (الحياء مركب من « جُبْن » وعفة ، ولذلك لا يكون المستحيى فاسقًا ، ولا الفاسق مستحيًا ، لتنافى اجتماع العفة والفسق ، وقلَّ ما يكون الشجاع مستحيًا ، والمستحيى شجاعًا ، لتنافى اجتماع « الجبن » والشجاعة) اهـ . لأن قوله : « جبن » توأم قول بشير لعمران رضى الله عنه : « ضعف ، وعجز » ، وكلاهما تَعَرُّضٌ لعموم قول الصادق المصدوق ﷺ : « الحياء خير كله » ، وقد قال ابن شهاب : « دَعُوا السنة تمضى ، لا تعرضوا لها بالرأى » .

دعـوا كـل قـول عنـد قـول محمـد ... فمـا آمــن فـى دينــه كمخاطـــر

والرجل الفاضل الحيى يتخوف على مكارمه ومحامده أن يضيع بهاؤها ، وينطفىء سناؤها ، بما يجرح الشعور ، ويُحرج الوجدان ، فحياء مثل هذا من أمارات الشجاعة ، لأن الحيى الكريم يجود بإراقة دمه ، ويفضِّل ذلك على إراقة ماء وجهه ، فتراه يستحيى من الفرار ، ويتقى العار ، وهذا من أعلى الشجاعة ، وقد قرنت العرب بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء ، نحو قول الشاعر :

يجـرى الحيـاء الغـض مـن قسماتهـم ... فى حيـن يجـرى مـن أكفهـم الـدمُ

وقول الآخر :

كريـم يغـض الطـرف فضـل حيائـه ... ويدنـو وأطـــراف الرمـاح دوانـى

وقول ليلى الأخيلية :

فتـى هـو أحيـا مـن فتـاة حييـة ... وأشجـع مـن ليـث بخفَّانِ خـادِرِ

تعنى : أشجع من أسد مقيم فى غِيل من الشجر ، وهو الشجر العظيم الملتف .

قال الراغب :

(وأما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء ، ويُحمد فى النساء والصبيان ، ويُذَمُّ باتفاق من الرجال ، والوقاحة مذمومة بكل إنسان إذ هى انسلاخ من الإنسانية ، وحقيقتها لجاج النفس فى تعاطى القبيح ، واشتقاقه من : حافر وقاح ، أى صلب ، وبهذه المناسبة قال الشاعر :

يا ليت لى من جلد وجهك رقعةً فأقد منها حافراً للأشهب[1]

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكامل فيه الشر واجتمعا)[2]

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول : « ما عاقب الله تعالى قلبًا بأشد من أن يسلب منه الحياء » .

حقيقة الحياء :

أنه خلق يبعث على ترك القبائح ، ويمنع من التفريط فى حق صاحب الحق ، وقد اختصَّ الله عز وجل به الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه الشهوة من القبائح ، كى لا يكون كالبهيمة التى تهجم على ما تشتهى دون حياء .

وبين اقتراف الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ، ويطلبه حثيثًا ، قال الشاعر :

إذا رُزِقَ الفتى وجهًا وقاحًا[3] تقلَّب فى الأمور كما يشاءْ
ولم يك للدواء ولا لشىء تعالجه به فيه غَناءْ
ورُبَّ قبيحةٍ ما حال بينى وبين ركوبها إلا الحياءْ
فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياءُ فلا دواءْ

(١) الأشهب : صفة من صفات الخيل .
(٢) « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ص (١٤٦) .
(٣) وقاحًا : متلونًا كثير الوقاحة وعديم الحياء .

فمن ثَمَّ قال سفيان بن عيينة رحمه الله : « الحياء أخف التقوى ، ولا يخاف العبد حتى يستحيى ، وهل دخل أهل التقوى فى التقوى إلا من الحياء ؟! » .

الحياء جِبلِّى ، وكَسْبِى :

(أ) الحياء غريزى جبلى وهبِّى مركوز فى فطرة الإنسان ، فهو غيرُ مكتسب أصلاً ، لكنه اكتسابى كمالاً ،

مثال الحياء الجبلى الفطرى : حياء الإنسان من التكشف ، ومنه حياء آدم وحواء عليهما السلام حين سارعا إلى ستر عوراتهما بأوراق الشجر بمجرد أن تبدت لهما سوءاتهما : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[1].

وعن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن آدم عليه السلام كان رجلًا طُوَالًا كأنه نخلةٌ سَحُوقٌ[2] كثيرُ شعرِ الرأسِ ، فلما وقع بما وقع به بَدَتْ له عورتُه ، وكان لا يراها قبل ذلك ، فانطلق هاربًا فأخذَتْ برأسِهِ شجرةٌ من شجر الجنة ، فقال لها : « أَرْسِلينى » قالت : « لستُ مُرْسِلَتَكَ » ، قال : فناداه ربه عز وجل : « أَمِنِّى تِفرُّ ؟ » ، قال : « أى رب ألا أستحييك ؟ » قال : فناداه : « وإن المؤمن يستحيى رَبَّه عز وجل من الذنب إذا وقع به ، ثم يعلمُ بحمد الله أين المخرج ، يعلم أن المخرج فى الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل »)[3].

---

(١) (طه : ١٢١) .

(٢) النخلة السحوق : الطويلة التى بَعُد ثمرها على المجتنى .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى « الزهد » ص (٤٨) مرسلًا ، فإن الحسن لم يدرك أُبَيًّا ، وأخرجه الحاكم موصولًا (٢/٢٦٢) عن الحسن عن يحيى بن ضمرة ، (ولعله : عُتَىُّ بن ضمرة) ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » .

وفى الحياء الفطرى الغريزى قال رسول الله ﷺ لأشج بنى عصر : « إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل » فقال : « وما هما ؟ » ، قال : « الحلم والحياء » ، قال : قلت : « قديمًا كانتا فِيَّ أم حديثًا ؟ » قال : « قديماً » ، قال : « الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله عز وجل »[1].

(ب) أما النوع الآخر من الحياء فإنه يكون مكتسبًا من معرفة الله عز وجل ، وقربه من عباده ، وإحاطته بهم ، وعلمه خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، فهذا هو الحياء « الإيمانيُّ » الذى يمنع المؤمن من ارتكاب المعاصى خوفاً من الله عز وجل .

الحياء من مكارم الأخلاق عند العرب :

(قال فى « اللمعات » : كانت العرب أحسن الأمم أخلاقًا ، ولكنهم قد ضلوا بالكفر عن كثير منها ، وخلطوا بها أحكام الجاهلية ، فبُعِثَ صلى الله عليه وآله وسلم ليتمم محاسن الأخلاق)[2] اهـ .

وكان الحياء من هذه الأخلاق التى تغنى بها العرب :

قال الشَّنْفَرى يصف امرأة شديدة الحياء :

كأن لها فى الأرض نَسيًا تقصه   على أَمِّها وإن تُحَدِّثْكَ تَبْلِتِ

يقول : لا ترفع رأسها كأنها تطلب شيئاً فى الأرض ، والنَّسْيُ : ما أضله أهلُه فيُطلَب ويطمع فيه ، وتقصه : تتبعه ، قال عز وجل : ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ أى اتبعى أثره ، والأَمُّ : القصد ، وقوله : « وإن تحدثْكَ تَبْلِتِ » تقطع الحديث لاستحيائها .

---

(١) رواه ابن أبى عاصم فى « السنة » رقم (١٩٠) ، والإمام أحمد (٢٠٥/٤) ، وله شواهد فى « الصحيحين » وغيرهما ، وصححه الألبانى على شرط الشيخين .

(٢) « فضل الله الصمد فى توضيح الأدب المفرد » (٣٧٠/١) .

ووصف النابغة شدة حياء امرأة النعمان حين مرت بمجلسهما فسقط نصيفها (أى برقعها) الذى كانت قد تقنعت به ، فسترت وجهها بذراعيها، وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى ، فقال :

سقط النصيف ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولته واتَّقتنا باليدِ

وعن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره (أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحولَه عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه ، فقال : « أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ » ، فقال أبو سفيان : « فقلت : أنا أقربهم نسباً » ، فقال : « أدنوه منى ، وقرِّبوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره» ، ثم قال لترجمانه : « قل لهم : إنى سائلٌ هذا الرجل ، فإن كَذَبنى ، فكذِّبوه » ، فوالله لولا الحياءُ من أن يأثِروا عَلَىَّ كذباً لكذبتُ عنه) الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وفى قوله « يأثروا » دون قوله « يكذبوا » دليل على أنه كان واثقًا منهم بعدم التكذيب أن لو كذب ، لاشتراكهم معه فى عداوة النبى ﷺ ، لكنه ترك ذلك استحياءً وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا ، فيصير عند سامعى ذلك كذابًا ، وفى رواية ابن إسحاق التصريح بذلك ، ولفظه : « فوالله لو قد كذبت ما ردوا علىَّ ، ولكنى كنت امرءًا سيدًا أتكرم عن الكذب ، وعلمت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عنى ثم يتحدثوا به ، فلم أكذبه » اهـ[2].

(١) رواه البخارى (١/٣٥ - فتح) .

(٢) « فتح البارى » (١/٣٥) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه مع أبى عامر على جيش فى أوطاس ، ورمى رجل من بنى جُشَم أبا عامر بسهم فأثبته فى ركبته ، قال أبو موسى : (فقصدت له ، فاعتمدته ، فلحقته ، فلما رآنى ولَّى عنى ذاهباً ، فاتَّبعته ، وجعلت أقول له : « ألا تستحيى ألست عربيًّا ؟ ألا تثبت ؟ فكف فالتقيت أنا وهو فاختلفنا أنا وهو ضربتين ، فضربته بالسيف ، فقتلته »[1].

الحياء فى الإسلام :

أما فى الإسلام فقد رفع الإسلام شأن الحياء ، وحض عليه ، وامتدح أهله فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، فلقد أبرز القرآن العظيم خلق الحياء فى ابنتى الرجل الصالح ، اللتين انحدرتا من بيت كريم ، ينضح بالعفاف والطهارة ، والصيانة وحسن التربية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾[2] قال عمر رضى الله عنه : « ليست بسلفع[3] من النساء خَرَّاجة ولَّاجة ، ولكن جاءت مستترة ، قد وضعت كُمَّ دِرْعِها على وجهها استحياءً »[4] وفى رواية : « جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع من النساء خراجة ولَّاجة »[5].

وبلغ من تقدير الإسلام خُلُق الحياء أن بُنى على اعتباره حكمٌ شرعى ، فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن

---

(١) رواه مسلم (١٦/٥٩ - نووى) .

(٢) (القصص : ٢٥) .

(٣) امرأة سلفع : سليطة جريئة قليلة الحياء .

(٤) أخرجه الفريابى ، وابن أبى شيبة فى « المصنف » ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم ، وصححه عن عمر رضى الله عنه - كما فى « الدر المنثور » (١٢٤/٥) .

(٥) ذكره ابن كثير من رواية ابن أبى حاتم ، وصححه كما فى « تفسير القرآن العظيم » (٢٣٨/٦) .

الجارية يُنكِحُها أهلُها ، أتُستأمر أم لا ؟ » فقال لها رسول الله ﷺ : « نعم تُستأمر » ، فقالت : فقلت له : « إنها تستحيى » ، فقال رسول الله ﷺ : « فذلك إذنها إذا هى سكتت »[1] وفى لفظ النسائى وأحمد : « استأمروا النساء فى أبضاعهن » قيل : « فإن البكر تستحيى أن تكلم ؟ » قال : « سكوتها إذنها » ، وقال ﷺ : « لا تنكح البكر حتى تستأذن ، ولا الثيب حتى تستأمر »[2] الحديث .

فجعل إذن البكر أن تسكت لشدة حيائها ، وأما الثيب فلا بد من إذنها الصريح فى التزويج .

ثمرة الحياء :

من ثمرات الحياء : مشهد النعمة والإحسان، فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه ، وإنما يفعله اللئيم ، فيمنعه مشهد إحسانه إليه ، ونعمته عليه من عصيانه حياءً منه أن يكون خيره وإنعامه نازلًا عليه ، ومخالفته صاعدة إليه ، فمَلَكٌ ينزل بهذا ، ومَلَك يعرج بهذا ، فأقبح به من مقابلة !

قال الجنيد رحمه الله : (الحياء رؤيةُ الآلاء ، ورؤية التقصير ، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء ، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح ، ويمنع من التفريط فى حق صاحب الحق) .

فإذا كان الإنسان يُخزى أن يسىء إلى من أحسن إليه من البشر ، ويستحيى ممن أسدى إليه معروفاً أن يقابله بالنكر ، فكيف لا يستحيى الإنسان من ربه واهب النعم التى لا تُحصى .

قال محمد بن علىٍّ الترمذىُّ: « اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره

---

(١) أخرجه البخارى رقم (٥١٣٧) ، ومسلم (١٤٢٠) ، وغيرهما .

(٢) رواه البخارى رقم (٥١٣٦) ، ومسلم (١٤١٩) ، وغيرهما .

إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه » ، فلو لم يرد بالحياء شرع ، لاستلزمه العقل واستحسنه ، قال الشاعر :

هب البعث لم تأتنا رسله ... وجاحِمة النار لم تُضرَم

أليس من الواجب المستحَقّ ... حياءُ العباد من المنعمِ ؟!

حياء الجناية :

روى قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون لذلك ، فيقولون : « لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ؟ » ، قال : فيأتون آدم ، فيقولون : « أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا » ، فيقول : « لست هناكم » فيذكر خطيئته[1] التى أصاب ، فيستحيى ربه منها ، « ولكن ائتوا نوحًا أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض » ، قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : « لست هناكم » ، فيذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحيى ربَّه منها ، « ولكن ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً » ، فيأتون

---

(١) ما نسب إلى الأنبياء عليهم السلام من معصية إما أنه فعلٌ حَسِب النبى أنه يرضى الله عز وجل فلم يوافق رضى الله ، أو أنه من باب ترك الأَوْلى ، ومن باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ، فالأنبياء عليهم السلام معصومون من أن يقع منهم ما يُزرى بمراتبهم العالية ، ومناصبهم السامية ، ولو فرضنا أنه وقع منهم شئ من المخالفة فإنهم يتداركون ذلك بالتوبة والإخلاص ، وصدق الإنابة إلى الله عز وجل حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات ، فتكون درجاتهم بذلك أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ .

وقد استقصى الإمام ابن حزم رحمه الله فى « الفِصَل » ما يَرِد من الشبهات على عصمة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فى بحث مدهش ، فراجعه (٤/٢ – ٢٥) .

إبراهيم ، فيقول : « لست هناكم » ، وذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحيى ربه منها ، « ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله ، وأعطاه التوراة » ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : « لست هناكم » ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، فيستحيى ربه منها ، « ولكن ائتوا عيسى روحَ الله وكلمته » ، فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : « لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدًا ، عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فيأتوننى ، فأستأذن على ربى ، فيؤذن له ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا ، فيدعنى ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، ارفع ، قل يُسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ») الحديث[1].

وعن محمد بن حاتم قال : (قال الفضيل بن عياض : « لو خُيِّرت بين أن أُبعث فأدخل الجنة ، وبين أن لا أبعث لاخترت أن لا أبعث » ، قيل لمحمد بن حاتم : هذا من الحياء ؟ قال : نعم هذا من طريق الحياء من الله عز وجل .

وروى أن الأسود بن يزيد لما احتُضِر بكى ، فقيل له : « ما هذا الجزع ؟ » ، قال : « مالى لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك منى ؟ والله لو أُتيت بالمغفرة من الله عز وجل لأهمَّنى الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنبُ الصغير فيعفو عنه ، ولا يزال مستحييًا منه ».

وأنشد بعضهم :

يا حسرة العاصين عند معادهم ... هذا وإن قدموا على الجناتِ
لو لم يكن إلا الحياءُ من الذى ... ستر القبيح لكان أعظم الحسراتِ

وقال الحسن : « لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام ؛ لكان ينبغى لنا أن نبكى فنطيل البكاء » .

(١) رواه البخارى فى « الأنبياء » ، ومسلم رقم (١٩٤) .

وروى عن أبى حامد الخلقانى أنه أنشد الإمام أحمد هذين البيتين :

إذا مـا قـال لـى ربـى أمـا استحييـت تعصينـى
وتخفى الذنـب مـن خلقـى وبالعصيـان تأتينـى

فأمره أحمد بإعادتهما عليه ، فأعادهما عليه ، فدخل أحمد داره ، وجعل يرددهما ، ويبكى .

وشهد الفضيل رحمه الله الموقف الأشرف فى عرفات ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقد قبض على لحيته ، وهو يبكى بكاء الثكلى ، ويقول : « واسوأتاه منك ، وإن عفوت ! » .

يـا خجلـة العبد مـن إحسـان سيده يـا حسرة القلـب مـن ألطاف معناهُ
فكـم أسـأتُ وبالإحسـان قابلنـى واخجلتـى واحيائـى حيـن ألقـاه
يا نفسُ كـم بخفـى اللطف عامَلَنى وقـد رآنـى علـى مـا ليـس يرضـاه
يـا نفس كـم زلـةٍ زلت بهـا قدمى ومـا أقـال عِثـارى ثَـمَّ إلا هُـوْ
يا نفسُ توبى إلى مولاكِ واجتهـدى وصابـرى فيـه إيقانـاً برؤيـاهُ

* * *

☼ فضائل الحياء ☼

أولًا : الحياء مفتاح كل خير[1].

ثانيًا : الحياء من خصائص الفطرة الإنسانية[2].

ثالثًا : الحياء إيمان :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهما ، رُفع الآخر »[3].

قال الطيبى : (فيه رائحة التجريد ، حيث جرد من الإيمان شعبة منه ، وجعلها قرينة له على سبيل الاستعارة ، كأنهما رضيعا لبان ثدي ، تقاسما على أن لا يفترقا)[4] اهـ .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ[5] أخاه فى الحياء[6] ، - وفى رواية : وهو يعاتب أخاه على الحياء يقول : « إنك لتستحيى » ، حتى كأنه يقول : « قد أضَرَّ بك » ، فقال

(١) تقدم بيان ذلك ص (٥) .

(٢) تقدم بيان ذلك ص (٩) .

(٣) رواه الحاكم فى « المستدرك » (٢٢/١) ، وقال : « صحيح على شرطهما » ، وأقره الذهبى .

(٤) نقله عنه فى « فيض القدير » (٤٢٦/٣) .

(٥) الوعظ : زجر يقترن بتخويف ، وكان يصح له أن لا يُكثر منه ، ويذكر ما يترتب على ملازمته من المفسدة وضياع المال وخسران الربح ، كما فى « فضل الله الصمد » (٦١/٢) .

(٦) (فى) هنا سببية ، وكان الأخ كثير الحياء ، فكان ذلك يمنعه من استيفاء حقوقه .

رسول الله ﷺ : « دعه[1] ، فإن الحياء من الإيمان »[2].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها : لا إلٰه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[3].

وقد حكى الإمام النووى رحمه الله عن القاضى عياض قوله : (إنما جعل الحياء من الإيمان – وإن كان غريزة – لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا ، كسائر

---

(١) [« دعه » أى اتركه على هذا الخلق السنى ، ثم زاده فى ذلك ترغيبًا لحكمه بأنه من الإيمان ، وإذا كان الحياء يمنع صاحبه من استيفاء الحق جَرَّ له ذلك تحصيل أجر ذلك الحق ، ولا سيما إذا كان المتروك له مستحقاً ، والظاهر : أن الناهى ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان ، فلهذا وقع التأكيد ، وقد يكون التأكيد من جهة أن القضية فى نفسها مما يهتم به ، وإن لم يكن هناك منكر] اهـ . من « فضل الله الصمد » (٦١/٢) .

فائدة :

لا يُفهم من الحض على الحياء وإن أضر بحق المستحيى أن من استغل هذا الحياء عارٍ عن الإثم والحَيْف ، فقد قال العلماء رحمهم الله تعالى : « أخذ المال بالحياء كأخذه بالسيف » مستنبطين ذلك من قوله ﷺ : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه » ، وعن أبي حميد رضى الله عنه قال : « لا يحل للرجل أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه ، وذلك لشدة ما حرَّم رسول الله ﷺ من مال المسلم على المسلم » ، وانظر : « إرواء الغليل » (٢٧٩/٥) .

(٢) رواه البخارى فى الأدب : باب الحياء (٤٣٣/١٠) ، ومسلم رقم (٣٦) .

(٣) رواه البخارى فى الإيمان : باب أمور الإيمان ، ومسلم رقم (٣٥) ، وغيرهما .

فائدة : (قال ابن قتيبة : إن الحياء يمنع صاحبه من المعاصى كما يمنع الإيمان ، فسمى إيمانًا كما يسمى الشيء باسم ما قام مقامه ، وأفرده بالذكر لأنه كالداعى إلى باقى الشعب ، إذ الحيُّ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر ، وهو أساس التقوى ، وهو من مبادىء الإيمان ، ووجود المبدأ غير وجود الشيء ، والأساس غير البنيان ، نعم وجود المبدأ والأساس يدل أن الشيء كاد أن يوجد ، فلا يغرنك كون بعض الكفرة ذا حياء ، لأن الانهماك والاشتغال فى الدنيا لم يرزقه الإيمان ، وإن وصل إلى فيه ، والغفلة تمنعه أن تنبت فيه شجرة الإيمان ، وتزهو ، وتثمر ، فالكافر الحيى كاد أن يدخل الباب ، ولما يدخل ، فمن استحيى من الله لا يفقده حيث أمره ، ولا يجده حيث نهاه) اهـ . من « فضل الله الصمد » (٥٥/٢) .

أعمال البر ، وقد يكون غريزة ، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ، ونية ، وعلم ، فهو من الإيمان بهذا ، ولكونه باعثًا على أفعال البر ، ومانعًا من المعاصى)[1] اهـ .

أما إذا سُلب العبدُ الحياءَ المكتسب والغريزى ، فإنه لا يبقى له ما يحجزه عن القبائح والدنايا ، فصار كأنه لا إيمان له ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبَذاء[2] من الجفاء[3]، والجفاء فى النار »[4].

قال أبو حاتم : (فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة ، كما أن الواقح إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدومًا ، وتواتر الشر منه موجودًا ، لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها ، فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها ، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها)[5] اهـ .

وأنشد محمد بن عبد الله البغدادى :

إذا قلَّ مـاء الوجه قـلَّ حياؤه ... فلا خير فى وجه إذا قَلَّ ماؤه
حياءك فاحفظه عليك ، فإنما ... يدل على وجه الكريم حيـاؤه

وقال سليمان : « إذا أراد الله بعبدٍ هلاكًا نزع منه الحياء ، فإذا نُزِع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا مُمَقَّتًا » .

---

(١) « شرح النووى » (٢/٥) .

(٢) البذاء : الفحش من القول ، والفحش : ما اشتد قبحه من ذنوب ومعاصى ، ويجرى أكثر ذلك فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة ، أما أهل الصلاح فيتحاشون ذلك ، ويعبرون عنه بغير لسانهم أو بالكناية عن كل ما يستحيى منه من الألفاظ .

(٣) الجفاء : الطرد والإعراض ، وترك الصلة والبر .

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢/٥٠١) ، والترمذى (٢٠١٠) ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه ابن حبان (١٩٢٩) .

(٥) « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » ص (٥٨) .

وقال الفضيل بن عياض : (خمس من علامات الشِّقوة : القسوةُ فى القلب ، وجمودُ العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطولُ الأمل) .

رابعاً : الحياء أبهى زينة :

فإن الوجه المصون بالحياء ، كالجوهر المكنون فى الوعاء ، ولن يتزين إنسان بزينة هى أبهى ولا أجمل من الحياء ، عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش فى شىء قط إلا شانه ، ولا كان الحياء فى شىء قط إلا زانه »[1].

وقوله : « شانه » أى : عابه ، والشين : العيب ، قال الطيبى : (فيه مبالغة ، أى لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء فى جماد لشانه أو زانه ، فكيف بالإنسان ؟ وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة مفتاح كل شر ، بل هى الشر كله ، والأخلاق الحسنة السنية مفتاح كل خير ، بل هى الخير كله)[2] اهـ .

فمن ثم قيل : « الإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء » .

خامساً : الحياء من صفات الله عز وجل :

فعن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله حَيِيٌّ كريم ، يستحيى إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفْرًا خائبتين »[3].

وعن يعلى بن أمية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله

---

(١) أخرجه الترمذى (١٩٧٥) فى البر والصلة ، وابن ماجه (٤١٨٥) ، وعبد الرزاق فى « المصنف » (٢٠١٤٥) ، وقال الترمذى : « حسن غريب » .

(٢) نقله عنه المناوى فى « الفيض » (٥/٤٦١) .

(٣) أخرجه أبو داود (٢/٧٨) ، والترمذى (٥/٥٥٦) ، وانظر : « صحيح الترمذى » (٣/١٧٩) ، و « صحيح ابن ماجه » (٢/٣٣١) .

تعالى حَيِيٌّ ستيرٌ يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر »[1].

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله : (وأما حياء الرب تعالى من عبده ، فذاك نوع آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم ، وبر ، وجود ، وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حيى كريم ، يستحيى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت فى الإسلام)[2] اهـ .

قال المباركفورى رحمه الله : (قوله : « إن الله حيى » فعيل من الحياء ، أى كثير الحياء ، ووصفه تعالى بالحياء يحمل على ما يليق له كسائر صفاته نؤمن بها ، ولا نكيفها)[3] اهـ .

فالله عز وجل مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيى من هتك العاصى ، وفضيحته ، وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر ، ويعفو عنه ، ويغفر له ، ويتحبب إليه بالنعم ، ويستحيى ممن يمد يديه إليه سائلًا متذللًا أن يردهما خاليتين خائبتين .

ومعنى « يحب الحياء » أى من اتصف به ، قال التوربشتى : (وإنما كان الله يحب الحياء والستر لأنهما خصلتان يفضيان به إلى التخلق بأخلاق الله)[4] اهـ .

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (.. من وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها ، وأدخلته على ربه ، وأدنته

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٤٠) ، والنسائى (١/٢٠٠) ، والبيهقى (١/١٩٨) ، والإمام أحمد (٤/٢٢٤) ، وصححه الألبانى فى « الإرواء » (٧/٣٦٧) ، وصحيح النسائى (١/٨٧) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/٢٦١) .

(٣) « تحفة الأحوذى » (٩/٥٤٤) .

(٤) نقله عنه فى « فيض القدير » (٢/٢٢٨) .

وقَرَّبته من رحمته ، وصيَّرته محبوبًا له ؛ فإنه سبحانه رحيم يُحب الرحماء ، كريم يحب الكُرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حَيِيٌّ يُحب أهل الحياء ، جميل يحب أهل الجمال ، وتر يحب أهل الوتر)[1] اهـ .

سادسًا : الحياء خلق يحبه الله عز وجل :

وتقدم فى حديث يعلى بن أمية « أن الله يحب الحياء والستر » ، وعن عبد الرحمٰن بن أبى بكرة قال : قال لى أَشَجُّ بنى عَصَر : قال لى رسول الله ﷺ : « إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل » ، قال : قلت : « وما هما ؟ » قال : « الحلم والحياء » ، قال : قلت : « قديمًا كانتا فِىَّ أم حديثًا ؟ » ، قال : « قديمًا » ، قال : « الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله عز وجل »[2] .

سابعًا : الحياء شريعة جميع الأنبياء عليهم السلام :

فقد بيَّن ﷺ أن الحياء لم يزل مُستحسَنًا فى شرائع الأنبياء الأولين ، وأنه لم يُرْفَع ، ولم يُنْسَخْ فى جملة ما نسخ الله من شرائعهم ، بل تداوله الناس بينهم ، وتوارثوه عنهم ، وتواصَوْا به قرنًا بعد قرن .

فعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ مِمَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : « إذا لم تستح ، فاصنع ما شئت »)[3] .

---

(١) « الجواب الكافى » ص (٧٧) .

(٢) تقدم تخريجه ص (١٠) .

(٣) رواه البخارى (١٠/٤٣٤) ، والبغوى فى « شرح السنة » (١٣/١٧٤) ، وعبد الرزاق (٢٠١٤٩) .

فائدة: قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله وهو يعدد عقوبات الذنوب والمعاصى: =

إن الحياء يمنع من القبيح ، وإذا اشتد حياء المرء صان عرضه ، ودفن مساويه ، ونشر محاسنه ، ومن سقطت صبغة الحياء عن وجهه كما تسقط القشرة الخضراء عن العود الغض ، فقد آذنت حياته الفاضلة بالضمور ، وتهيأ الحطام الباقي أن يكون حطبًا للنار ، فيجترىء على المخالفات ، ولا يبالي بالمحرمات .

إذا لم تَصُن عِرضاً ، ولم تخش خالقًا وتستحي مخلوقًا فما شئت فاصنعِ

وأنشد رجل من خزاعة :

= (ومن عقوباتها : ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهابُ كُلِّ خيرٍ بأجمعه ، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « الحياء خير كله » ، وقال : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى : من لم يستح فإنه يصنع ما يشاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يزعه عن القبائح فإنه يواقعها ، وهذا تفسير أبي عبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستح فيه من الله فافعله ، وإنما الذى ينبغي تركه هو ما يستحيي فيه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانىء .

فعلى الأول يكون تهديدًا ، كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ، وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة . والمقصود : أن الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما إنه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ، ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع ، وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حَيَّاه وقال : « فُديتَ من لا يُفلح ») اهـ .

وقال أيضاً : (ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدِّث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : « يا فلان عملت كذا وكذا » ، وهذا الضرب من الناس لا يُعافَوْنَ ، ويُسَدُّ عليهم طريق التوبة ، وتُغلق عنهم أبوابها فى الغالب ، كما قال النبى ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار : أن يستر الله العبد ، ثم يصبح يفضح نفسه ، ويقول : « يا فلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فهتك نفسه ، وقد بات يستره ربه » اهـ . من « الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » ص (٦٥) ، (٧٨ - ٧٩) بتصرف .

إذا لـم تخـش عاقبـة الليالى ... ولم تَسْتَحْيِ فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العُودُ ما بقى اللِّحاء

ثامنًا : الحياء خلق الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (إن موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتيرًا ، لا يُرَى من جلده شىءٌ ، استحياءً منه)[1].

ومن حياء رسول الله ﷺ ما رواه مالك بن صعصعة رضى الله عنه من تردد النبى ﷺ بين ربه وبين موسى ، وسؤاله ربه التخفيف حتى جعلها خمسًا ، فقال له موسى عليه السلام : « ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك » ، قال : « سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأُسَلِّم »[2].

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أشَدَّ حياءً من العذراء فى خِدْرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه ، عرفناه فى وجهه)[3].

والخِدْر : ناحية البيت يلقى عليه ستر ، فتكون فيه الجارية البكر ، والعذراء- إذا كانت متربية فى سترها- تكون أشد حياءً لتسترها حتى عن النساء ، بخلاف الداخلة الخارجة ، والمراد بالحديث الحالة التى تعتريها عند دخول أحدٍ عليها فيه ، لا التى تكون عليها حالة انفرادها واجتماعها بمثلها فيه .

والمقصود أنه ﷺ كان فى حيائه الفطرى أشد من هذه البكر ، وكان

---

(١) رواه البخارى فى الغسل ، والترمذى (٣٢١٩) ، والإمام أحمد .
(٢) انظر « صحيح البخارى » (٦٦/٥) ، « شرح النووى » (٢٠٩/٢ - ٢١٥) .
(٣) رواه البخارى (١٠/٤٣٤) ، ومسلم رقم (٢٣٢٠) ، وغيرهما .

فى الحياء المكتسب فى الذروة العليا منه ، وكان إذا كره شيئًا ، لا يتكلم به لحيائه ﷺ ، بل يتغير وجهه ، فنفهم نحن – الصحابة رضى الله عنهم – كراهته ، فما أكرم خلقه ﷺ !

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (سألت امرأة النبى ﷺ كيف تغتسل من حيضتها ؟ قالت : فذكرت أنه علَّمها كيف تغتسل ، ثم تأخذ فِرْصَة من مسك فتطهر بها قالت : « كيف أتطهر بها ؟ » ، قال : « تطهرى بها ، سبحان الله ! » واستتر بيده على وجهه، قالت عائشة : واجتذبتها إلَىَّ ، وعرفت ما أراد النبى ﷺ ، فقلت : تتبعى بها أثر الدم)[1].

تاسعًا : الحياء خُلُقُ الإسلام :

ولأجل عظيم أثره ، وشَرَفِ قَدْرِه ، تَصَدَّر الحياءُ طليعةَ الخصائص الأخلاقية لهذه الملة الحنيفية ، فقد رُوى عن زيد بن طلحة عنه ﷺ أنه قال : « إنَّ لكل دينٍ خُلُقًا ، وخُلُقُ الإسلام الحياء »[2].

يعنى أن الغالب على أهل كل دين سجية سوى الحياء ، والغالب على أهل ديننا الحياء ، لأنه متمم لمكارم الأخلاق ، وإنما بُعث المصطفى ﷺ لإتمامها ، ولما كان الإسلام أشرف الأديان ، أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها ، وهو الحياء .

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٣/٤ – ١٥ – نووى) .

(٢) رواه الإمام مالك فى « الموطأ » (٩٠٥/٢) مرسلًا ، ووصله ابن ماجه رقم (٤١٨١) ، (٤١٨٢) ، وصححه الألبانى فى « صحيح ابن ماجه » (٤٠٦/٢) .

☼ من حياء الصحابيات رضى الله عنهن ☼

تأسى الصحابة والصحابيات رضى الله عنهم وعنهن أجمعين بأسوتهم الحسنة رسول الله ﷺ ، وتأدبوا بأدبه العالى ، فتخلقوا بخلق الحياء ، وهاك أمثلة من حيائهن وحيائهم :

فمن ذلك :

أن فاطمة رضى الله عنها أتت رسول الله ﷺ تسأله خادماً ، فقال : « ما جاء بك يا بنية ؟ » ، فقالت : « جئت أسلم عليك » ، واستحيت ، حتى إذا كانت القابلة ، أتته ، فقالت مثل ذلك ..) وفى بعض روايات هذه القصة :

(أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًّا وقد أخذا مضاجعهما) الحديث وفيه : (فجلس عند رأسها ، فأدخلت رأسها فى اللفاع ، حياءً من أبيها)[1].

وعن أنس رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها ، قال : وعلَى فاطمة رضى الله عنها ثوب ، إذا قنَّعَت به رأسها ، لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليكِ بأسٌ ، إنما هو أبوكِ وغلامُك »[2].

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أدخل البيت الذى

---

(١) رواه البخارى (١٢١/١١ - فتح) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦) ، والبيهقى (٩٥/٧) ، وصححه فى « الإرواء » (٢٠٦/٦) .

دُفِن فيه رسول الله ﷺ وأبى رضى الله عنه واضعةً ثوبى ، وأقول : « إنما هو زوجى وأبى » ، فلما دُفن عمر رضى الله عنه ، والله ما دخلتهُ إلا مشدودةً عَلَىَّ ثيابى حياءً من عمر رضى الله عنه »[1].

وجاءت فاطمة بنت عتبة رضى الله عنها تبايع رسول الله ﷺ ، فأخذ عليها : ﴿ **أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين** ﴾ الآية ، فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة رضى الله عنها : « أَقِرِّى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا » ، قالت : « فنعم . إذن » ، فبايعها بالآية[2] .

* * *

(١) رواه بنحوه الحاكم فى « المستدرك » (٧/٤) ، وصححه على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى .

(٢) رواه الإمام أحمد فى « المسند » (١٥١/٦) .

☼ من حياء الصحابيات رضى الله عنهن ☼

تأسى الصحابة والصحابيات رضى الله عنهم وعنهن أجمعين بأسوتهم الحسنة رسول الله ﷺ ، وتأدبوا بأدبه العالى ، فتخلقوا بخلق الحياء ، وهاك أمثلة من حيائهن وحيائهم :

فمن ذلك :

أن فاطمة رضى الله عنها أتت رسول الله ﷺ تسأله خادماً ، فقال : « ما جاء بك يا بنية ؟ » ، فقالت : « جئت أسلم عليك » ، واستحيت ، حتى إذا كانت القابلة ، أتته ، فقالت مثل ذلك ..) وفى بعض روايات هذه القصة :

(أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًا وقد أخذا مضاجعهما) الحديث وفيه : (فجلس عند رأسها ، فأدخلت رأسها فى اللفاع ، حياءً من أبيها)[١] .

وعن أنس رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة رضى الله عنها ثوب ، إذا قنَّعت به رأسها ، لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليكِ بأسٌ ، إنما هو أبوكِ وغلامُك »[٢] .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أدخل البيت الذى

---

(١) رواه البخارى (١٢١/١١ – فتح) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦) ، والبيهقى (٩٥/٧) ، وصححه فى « الإرواء » (٢٠٦/٦) .

دُفِن فيه رسول الله ﷺ وأبى رضى الله عنه واضعةً ثوبى ، وأقول : « إنما هو زوجى وأبى » ، فلما دُفن عمر رضى الله عنه ، والله ما دخلتهُ إلا مشدودةً عَلَيَّ ثيابى حياءً من عمر رضى الله عنه »[1].

وجاءت فاطمة بنت عتبة رضى الله عنها تبايع رسول الله ﷺ ، فأخذ عليها : ﴿ **أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين** ﴾ الآية ، فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة رضى الله عنها : « أَقِرِّى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا » ، قالت : « فنعم . إذن » ، فبايعها بالآية[2] .

* * *

(١) رواه بنحوه الحاكم فى « المستدرك » (٧/٤) ، وصححه على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبى .

(٢) رواه الإمام أحمد فى « المسند » (١٥١/٦) .

من حياء الصحابة رضى الله عنهم

وهذا الصديق رضى الله عنه يقول وهو يخطب فى المسلمين : « أيها الناس استحيوا من الله ، فوالله ما خرجت لحاجةٍ منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مُقَنِّعٌ رأسى حياءً من الله » .

وهذا الفاروق عمر رضى الله عنه يقول : « من قلَّ حياؤه ، قل ورعه ، ومن قل ورعه ، مات قلبه » ، ويقول : « من استحيا استخفى ، ومن استخفى اتقى ، ومن اتقى وُقِى » .

ومن الصحابة الأطهار رضى الله عنهم أجمعين مَن اختصَّه الله عز وجل بمزية خاصة فى هذا الخلق الكريم ، فهذا أمير البَرَرة ، وقتيل الفجرة ، ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول فيه الصادق المصدوق ﷺ : « ألا أستحيى من رجلٍ ، والله إن الملائكة لتستحيى منه ؟ »[1] .

ويقول ﷺ : « الحياء من الإيمان ، وأحيى أمتى عثمان »[2] .

---

(١) أصله فى مسلم رقم (٢٤٠٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى ، كاشفًا عن فخذيه ، أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له ، وهو كذلك ، فتحدث ، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ﷺ ، وسوَّى ثيابه – قال محمد أحد الرواة : ولا أقول ذلك فى يوم واحد – فدخل ، فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة رضى الله عنها : « دخل أبو بكر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيت ثيابك » فقال : « ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة » ، وفى رواية أنه قال ﷺ : « إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيت ، إن أذنت له على تلك الحال ، أن لا يَبْلُغَ إلَىَّ فى حاجته » .

(٢) رواه ابن عساكر من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً ، وصححه الألبانى فى =

وعن الحسن رحمه الله – وذكر عثمان رضى الله عنه و
قال : « إن كان ليكون فى البيت ، والباب عليه مغلق ، فما
ليُفيض عليه الماء ، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه » .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : « إنى لأغتسل فى الب
أقيم صلبى حتى آخذ ثوبى حياءً من ربى عز وجل » .

وعن قتادة قال : « كان أبو موسى إذا اغتسل فى بيت مظلم تجاذب ، وحنى ظهره ، حتى يأخذ ثوبه ، ولا ينتصب قائمًا » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه إذا نام لبس ثياباً عند النوم مخافة أن تنكشف عورته » .

وعن عبادة بن نسى قال : رأى أبو موسى قومًا يقفون فى الماء بغير أزر ، فقال : « لأن أموت ثم أُنْشَرَ ، ثم أموت ثم أنشر ، ثم أموت ثم أنشر ، أحبُّ إلَّى من أن أفعل مثل هذا » .

وقال عمرو بن العاص بعد إسلامه: (إنه لم يكن شخص أبغض إلَّى منه– يعنى النبى ﷺ – فلما أسلم لم يكن شخص أحبَّ إليه منه ، ولا أَجَلّ فى عينه منه ، قال : ولو سئلت أن أصفه لكم لما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينىَّ منه إجلالًا له) ، وهذا هو حياء الإجلال والهيبة .

وعن أبى واقدٍ الليثى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نَفَرٍ ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ،

= « الصحيحة » رقم (١٨٢٨) ، وبين أن شطره الأول متفق عليه من حديث ابن عمر ، وللآخر شاهد من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ : « وأصدقهم – أى أمتى – حياًء عثمان » أخرجه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبى ، وقال الألبانى فى « الصحيحة » : « وهو كما قالا » .

وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه[1] ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه[2] ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه[3] »[4] .

❋ ❋ ❋

(١) أوى إلى الله : أى لجأ إلى الله « فآواه الله » أى جازاه بنظير فعله ، بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه ، وفيه الثناء على من زاحم فى طلب الخير .

(٢) فاستحيا : أى ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياءً من النبى ﷺ وممن حضر ، وفى لفظ الحاكم : « ومضى الثانى قليلًا ثم جاء فجلس » ، والمعنى أنه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث « فاستحيا الله منه » أى رحمه ولم يعاقبه .

(٣) فأعرض الله عنه : أى سخط عليه ، وهو محمول على من ذهب معرضًا لا لعذر ، هذا إن كان مسلمًا ، ويحتمل أن يكون منافقًا ، واطلع النبى ﷺ على أمره ، كما يحتمل أن يكون قوله : « فأعرض الله عنه » إخبارًا أو دعاءً .

(٤) رواه البخارى (١٥٦/١ - فتح) ، وغيره .

☼ الاستحياء من النفس ☼

الذين يستحيى منهم الإنسان : الله عز وجل ، ثم الملائكة ، والناس ، ونفسه ، فمن استحيى من الناس ، ولم يستحى من نفسه ، فنفسه أخسُّ عنده من غيره لأنه يراها أحقر من أن يستحيى منها ، ومن استحيى منها ، ولم يستحى من الله ، فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فمن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ للرجل الذى استوصاه : « أوصيك أن تستحيَ من الله كما تستحيى من الرجل الصالح من قومك »[1].

فحق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه ، فالإنسان يستحيى ممن يكبر فى نفسه ، ولذلك لا يستحيى من الحيوان ، ولا من الأطفال ، ولا من الذين لا يميزون ، ويستحيى من العالم أكثر مما يستحيى من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحيى من الواحد ، وينبغى على الإنسان إذا كبرت عنده نفسه ، أن يكون استحياؤه منها أكثر من استحيائه من غيره ، ومن ثَمَّ قال بعض السلف : « من عمل فى السرِّ عملًا يَسْتَحْيِى منه فى العلانية ، فليس لنفسِهِ عنده قدرٌ » .

وسئل بعضهم عن المروءة فقال : « هى أن لا تفعل فى السر أمرًا ، وأنت

---

(١) رواه من حديث سعيد بن يزيد رضى الله عنه الإمام أحمد فى « الزهد » ص (٤٦) ، والخرائطى فى « مكارم الأخلاق » ص (٥٠) ، وغيرهما . وقال الألبانى : (إسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات) ، على خلاف فى صحبة سعيد بن يزيد ، وهو ابن الأزور ، وقد أثبتها له أبو الخير هذا - يعنى مرثد الراوى عن سعيد - وهو أدرى بها من غيره) اهـ . من « الصحيحة » رقم (٧٤١) .

تستحيي أن تفعله جهرًا » .

إن حياء المرء من نفسه هو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين : يستحيي بإحداهما من الأخرى ، وهذا من أكمل ما يكون من الحياء ، فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر .

* * *

◘ الاستحياء من الملائكة ◘

الحياء من أخلاق الملائكة ، كما يبين عنه حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها مرفوعًا : « ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة ؟ »[1]، وعنها رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام امتنع من دخول بيت النبى ﷺ استحياء منها ، فناداه بصوت خَفِىٍّ ، وأجابه النبى ﷺ بصوت خفى ، ثم قال ﷺ : « ولم يكن ليدخل عليك ، وقد وضعتِ ثيابَكِ ، وظننتُ أن قد رَقَدتِ ، فكرِهْتُ أن أوقظك »[2] الحديث .

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله : (قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : « إن معكم من لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم ، وأكرموهم » ولا ألأم ممن لا يستحيى من الكريم العظيم القدر ، ولا يُجلُّه ، ولا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ **وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون** ﴾ ، أى : استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام ، وأكرموهم ، وأجِلُّوهم أن يَرَوْا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان)[3] اهـ .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٨) .

(٢) أصل الحديث أخرجه مسلم (١٤/٣) ، والنسائى (٢٨٦/١) ، الإمام وأحمد (٢٢١/٦) .

(٣) « الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » ص (١٢٧ - ١٢٨) .

وعن عمرو بن مرة عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى في قوله تعالى : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ قال : (ما على أحدكم إذا خلى أن يقول : « اكتب ، رحمك الله » ، فيُملى خيراً ؟) .

* * *

❁ الاستحياء من الناس ❁

الحياء من الناس خلق حسن جميل ، يمنع من المعايب ، ويشيع الخير والعفاف ، ويعود النفس ركوب الخصال المحمودة .

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « لا خير فيمن لا يستحيى من الناس » .

وقال بعضهم : « أَحْيِ حياءك بمجالسة من يُسْتَحْيَى منه » .

وقال مجاهد : « لو أن المسلم لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصى لكفاه » .

وقد تقدم آنفًا أن رجلًا قال للنبى ﷺ : أوصنى ، فقال : « أوصيك أن تستحيى من الله تعالى كما تستحيى من الرجل الصالح من قومك »[1] فلا أحد من الفسقة إلا وهو يستحيى من عمل القبيح عن أعين أهل الصلاح وذوى الهيئات والفضل أن يراه وهو فاعله ، والله مطلع على جميع أفعال خلقه ، فالعبد إذا استحيى من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه تجنب جميع المعاصى ، فيالها من وصية ما أبلغها ، وموعظة ما أجمعها !

وقد نصَّب النبى ﷺ هذا الحياء حَكَمًا على أفعال المرء ، وجعله ضابطًا وميزانًا ، فعن النواس بن سمعان رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « البِرُّ : حسن الخُلُق ، والإثم : ما حاك فى صدرك[2]، وكرِهت أن يطَّلِعَ عليه الناس »[3].

(١) تقدم تخريجه قريباً ص (٣١) .

(٢) أى تحرك فيه وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل فى القلب منه الشك، وخوف كونه ذنبًا.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٣) فى البر والصلة، والترمذى رقم (٢٣٩٠) فى الزهد، والإمام =

وعن أسامة بن شريك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « مَا كَرِهْتَ أن يراه الناس فلا تفعله إذا خَلَوْتَ »[1].

* * *

= أحمد (١٨٢/٤) .

(١) رواه ابن حبان فى « روضة العقلاء » ص (٢٦) ، والضياء فى « المختارة » (٤٤٩/١) ، وغيرهما ، وحسَّنه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (١٠٥٥) .

■ ليس من الحياء ■

اعلم أن الحياء المحمود الذى هو خُلُق الإسلام ، وقرين الإيمان ، هو الحياء الذى يبعث على ترك القبيح ، ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق ، ويعرف هذا الحياء بثمرته ، فإذا أتى بخير فهو المحمود ، وإذا أتى بشر فهو عجز وخور ، وضعف ومهانة ، وهو من خداع الشيطان وتلبيسه كالحياء الذى يترتب عليه كتمانُ حق ، أو انتهاك حرمة .

قال الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « خير الهدى هدى محمد ﷺ » .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : « إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر ، وعليه تُعْرضُ الأشياء ، على خُلُقه ، وسيرته ، وهديه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل » .

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أشد حياءً من العذراء فى خِدْرِها ، قال القرطبى رحمه الله تعالى : (وقد كان المصطفى ﷺ يأخذ نفسه بالحياء ، ويأمر به ، ويحث عليه ، ومع ذلك فلا يمنعه الحياء من حق يقوله ، أو أمر دينى يفعله تمسكًا بقوله : ﴿ **والله لا يستحيى من الحق** ﴾ ، وهذا هو نهاية الحياء وكماله ، وحسنه ، واعتداله ، فإن من فرط عليه الحياء حتى منعه من الحق ، فقد ترك الحياء من الخالق ، واستحيى من الخلق ، ومن كان هكذا حُرِمَ منافع الحياء ، واتصف بالنفاق والرياء ، والحياء من الله هو الأصل والأساس ، فإن الله أحق أن يُستحيى منه ، فليحفظ هذا الأصل ، فإنه

نافع)[1] اهـ .

إن الإسلام بوصفه دين الله الحق دين حياتىّ واقعى شامل ، ينظم كل شئون الحياة على كافة مستوياتها ، فما من فعل أو ترك إلا ولله عز وجل فيه حكم ، ومن ثم يصبح المسلم – لا محالة – فى حاجة ماسة إلى التعرف على حكم الله سبحانه فى هذه الأمور ، وهذا الذى فعله وبيَّنه رسول الله ﷺ وهو القائل : « إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم »[2] الحديث .

وروى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلب فى السماء طائر إلا ذكَّرنا منه علمًا »[3].

وقد لاحظ بعض الناس ذلك حتى قيل لسلمان رضى الله عنه : « لقد علَّمكم نبيكم كل شئ حتى الخِراءَة !! » قال : « أجل ، لقد نهانا رسول الله ﷺ أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، وأن لا نستنجى باليمين ، وأن لا يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو يستنجى برجيع ، أو عظم »[4].

من أجل ذلك أسقط الإسلام اعتبار الحياء فى بعض المواضع مع تعظيمه هذا الخلق الكريم ، لما يترتب على الاستحياء فيها من الشر ، أو تضييع الحقوق ، أو انتهاك حرمات الله عز وجل .

ونظرة إلى مسلك الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك تبين لنا أنهم مع شدة

---

(١) نقله عنه المناوى رحمه الله فى « فيض القدير » (٤٨٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) – واللفظ له – والنسائى (١٨٥/٢) ، وابن ماجه (٣٩٥٦) ، والإمام أحمد (١٩١/٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٥٣/٥ ، ١٦٢) عن أشياخ من التيم عنه رضى الله عنه .

(٤) رواه مسلم رقم (٢٦٢) كتاب الطهارة : باب الاستطابة ، وأبو داود رقم (٧) فى الطهارة .

حيائهم لم يخجلوا من إبلاغ الأحكام الشرعية على وجهها تعليمًا للناس ما لا بد لهم منه ، وإنما استفادوا ذلك من هدى رسول الله ﷺ الذى قال لهم يوماً : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ، وفى لفظ : (بمنزلة الوالد) ، أعلِّمكم : إذا أتيتم الغائط ، فلا تستقبلوا القبلة ، ولا تستدبروها » الحديث(١).

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : (جاء أعرابى إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنا نكون بالبادية فتخرج من أحدنا الرُّوَيْحَةُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لا يستحيى من الحق ، إذا فعل أحدكم فليتوضأ ، ولا تأتوا النساء فى أعجازهنَّ » ، وقال مرة : « فى أدبارهن »)(٢).

وكانت أمهات المؤمنين رضى الله عنهن من نفسَ المنطلق يلين بأنفسهن هذا التأديب أحياناً :

فعن سعيد بن المسيب أن أبا موسى قال لعائشة : « إنى أريد أن أسألك عن شيء ، وأنا أستحيى منك » ، فقالت : « سل ، ولا تستحى فإنما أنا أمك »(٣)، فسألها عن الرجل يغشى ولا ينزل ، فقالت عن النبى ﷺ : « إذا أصاب الختانُ الختانَ فقد وجب الغُسل »(٤).

ومن المجالات التى ينبغى اطِّراح الحياء فيها : طلب العلم ، والتعليم ، قال

---

(١) رواه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أبو داود رقم (٨) ، وابن ماجه (١٣١/١) ، والدارمى (١٧٢/١) وحسنه الألبانى فى « المشكاة » (١١٢/١) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٦٥٣/٢) رقم (٦٥٥) وقال العلامة أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) وفى رواية : (فقالت : لا تستحى أن تسألنى عما كنت سائلًا عنه أمَّك التى ولدتك ، فإنما أنا أمك) .

(٤) رواه الإمام أحمد (٩٧/٦) ، ومسلم رقم (٣٤٩) فى الحيض ، والترمذى رقما (١٠٨) ، (١٠٩) فى الطهارة .

على رضى الله عنه : « لا يستحيِ الذى لا يعلم أن يَسأل حتى يعلم ، ولا يستحى من يُسأل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم » .

وقال البخارى : (وقال مجاهد : « لا يتعلم العلم مُسْتَحْيِ ولا مستكبر » ، وقالت عائشة رضى الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين »)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وهو – أى الحياء – الشرعى الذى يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر ، وهو محمود ، وأما ما يقع سبباً لترك أمر شرعى فهو مذموم ، وليس هو بحياء شرعى ، وإنما هو ضعف ومهانة ، وهو المراد بقول مجاهد:[لا يتعلم العلم مستحيٍ] ، وهذا الأثر عن مجاهد وصله أبو نعيم فى الحلية ، وإسناده صحيح على شرح المصنف) اهـ . بمعناه من « الفتح »[2].

وعن الأسود ومسروق قالا : (أتينا عائشة لنسألها عن المباشرة للصائم ، فاستحينا ، فقمنا قبل أن نسألها ، فمشينا لا أدرى كم ، ثم قلنا : جئنا لنسألها عن حاجة ، ثم نرجع قبل أن نسألها ، فرجعنا ، فقلنا : « يا أم المؤمنين إنا جئنا لنسألك عن شيء ، فاستحينا ، فقمنا » ، فقالت : « ما هو ؟ سلا عما بدا لكما » ، قلنا : « أكان النبى ﷺ يباشر وهو صائم ؟ » قالت : « قد كان يفعل ذلك ، ولكنه كان أملك لإربه منكم »)[3].

ورُوى – بسند ضعيف – عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال يومًا وهو على المنبر : (أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يقطع الصلاة إلا الحدث ، لا أستحييكم مما لا يستحيى منه رسول الله

---

(١)،(٢) « فتح البارى » (٢٢٩/١) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٢١٦/٦) ، وانظر البخارى فى الصوم : باب المباشرة للصائم ، ومسلمًا رقم (١١٠٦) ، وأبا داود رقم (٢٣٨٢) ، والترمذى رقم (٧٢٧) .

ﷺ، قال : والحدث أن يفسو أو يَضْرِط»)[1]، فلا يليق بالمسلم أن يتنزه عن شيء فعله أو قاله رسول الله ﷺ ، وهو أشد الناس حياءً ، وأعلمهم بالله عز وجل .

وعن زينب ابنة أم سلمة قالت : جاءت أم سُلَيْم إلى رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ » ، قال النبى ﷺ : « إذا رأت الماء » ، فغطَّت أم سلمة – تعنى وجهها – وقالت : « يا رسول الله ، وتحتلم المرأة ؟ » ، قال : « نعم ، تربت يمينك ، ففيم يشبهها ولدها ؟ »[2].

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مَثَلُ المسلم ، حدِّثونى ما هى ؟ » ، فوقع الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة ، قال عبد الله : « فاستحييت » ، فقالوا : « يا رسول الله أخبرنا بها » ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » ، قال عبد الله : فحدَّثتُ أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : « لأن تكون قُلْتَها أحبُّ إلَيَّ من أن يكون لى كذا وكذا »[3].

فمنعه حياء الإجلال لمن هم أسنُّ منه من الحاضرين من أن يقول ذلك ، قال الحافظ : (وكان يمكنه إذا استحيى إجلالًا لمن هو أكبر منه أن يذكر ذلك لغيره سرًّا ليخبر به عنه ، فيجمع بين المصلحتين ، ولهذا عقبه المصنف – أى البخارى – بباب من استحيى فأمر غيره بالسؤال)[4].

وقد أورد البخارى فى الباب المشار إليه حديث محمد بن الحنفية عن علىٍّ . قال : (كنت رجلًا مذَّاءً ، فأمرت المقداد أن يسأل النبى ﷺ ، فسأله ، فقال : « فيه الوضوء ») ، ولفظه فى كتاب الغسل : (كنت رجلًا

(١) رواه الإمام أحمد (١٣٨/١) ، وضعفه العلامة أحمد شاكر حديث رقم (١١٦٤) .
(٢) رواه البخارى (٢٢٩/١ – فتح) .
(٣) رواه البخارى (٢٢٩/١ – فتح) .
(٤) « فتح البارى » (٢٣٠/١) .

مذاءً ، فأمرت رجلًا أن يسأل النبى ﷺ - لمكان ابنته - فسأل ، فقال : « توضأ ، واغسل ذكرك ») .

وفى رواية النسائى : (فقلت لرجل جالسٍ إلى جنبى : « سله » ، فسأله) ، وفى مسلم : « فسأله عن المذى يخرج من الإنسان » ، وبينت رواية لأبى داود والنسائى وابن خزيمة سبب ذلك فعن على قال : « كنت رجلًا مذاءً ، فجعلت أغتسل منه فى الشتاء حتى تشقق ظهرى »[1] الحديث .

والحاصل أنه متى استحيا الإنسان وكان له مندوحة عن سؤال العالم مباشرة ، فلا بأس من أن يوكل غيره فى السؤال مراعاة للحياء من جهة ، وتحصيلًا للعلم من جهة أخرى .

وهذه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها استحيت أن تواجه الرجال ببعض الآداب ، فأمرت زوجاتهم بإبلاغهن : فعنها رضى الله عنها أنها قالت : (مُرْنَ أزواجكن أن يستطيبوا بالماء ، فإنى أستحييهم منه ، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله)[2] .

الحياء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

إن ترك الحياء فى النصح، والأمر والنهى الشرعيين من النعوت الإلـٰهية ، قال تعالى : ﴿ **والله لا يستحيى من الحق** ﴾ ، والذى يتهيب تقريع المبطلين لا يعتبر حَيِيًّا ، ففى موقف الانتصار للحق ، وفضح العقائد الفاسدة ،

---

(١) رواه البخارى (١/٢٣٠ - فتح) فى الغسل ، ومسلم رقم (٣٠٣) فى الحيض ، وأبو داود رقم (٢٠٦) إلى (٢٠٩) ، والترمذى رقم (١١٤) ، والنسائى (١/٩٦ ، ٩٧) ، وانظر : « فتح البارى » (١/٣٨٠) .

(٢) أخرجه الترمذى رقم (١٩) ، والنسائى (١/٤٣) ، والإمام أحمد (٦/٩٥) ، والبيهقى (١/١٠٧) ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

والتهوين من شأن الآلهة المزيفة ، قال تبارك وتعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ ، وبعد أن حقر آلهتهم ، وفضح عجزها عن خلق ذبابة ، بل عن حماية نفسها إذا هاجمتها ذبابة ، قال تبارك وتعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ الآيات.

فليس للحياء موضع إذا ضل الناس ، أو انتفش الباطل ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « لا يمنعن رجلًا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه ، أو شهده ، أو سمعه »[1] وقال عبيد بن عمير : « آثروا الحياء من الله على الحياء من الناس » ، فالأمر الشرعى – وإن كان يُتَوَهم أن فى تركه أدبًا وحياءً – فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعى ، وأن يُجْزَمَ أن ما خالفه ليس من الأدب فى شىء .

وقد زَخَرَ التاريخ الإسلامى بنماذج رائعة لوضوح هذا المفهوم عند السلف ومن تبعهم من الخلف ، فمن ذلك : ما حكاه سالم بن عبد الله قال : (أعرست فى عهد أبى ، فآذن أبى الناس ، وكان أبو أيوب فيمن آذنًا ، وقد ستروا بيتى بِنجاد[2] أخضر ، فأقبل أبو أيوب فدخل ، فرآنى قائمًا ، واطلع فرأى البيت مسترًا بنجاد أخضر ، فقال : « يا عبد الله ! أتسترون الجدر ؟! » قال أبى – واستحيى – « غلبنا النساء أبا أيوب » ! فقال :«من كنتُ أخشى عليه أن تغلبنه النساء فلم أكن أخشى عليك أن تغلبنك!»، ثم قال : « لا أطعم لكم طعامًا ، ولا أدخل لكم بيتًا » ، ثم خرج

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٧) ، والحاكم (٥٠٦/٤) ، وأحمد (١٩/٣) ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (١٦٨) .

(٢) نجاد : بكسر النون ، جمع « نجد » ، وهو ما يزين به البيت من البسط والوسائد والفرش .

رحمه الله)[1].

ومن هذه المواقف : ما حكاه عبد الرزاق بن سليمان بن على بن الجعد قال : سمعت أبى يقول : (لما أحضر المأمون أصحاب الجوهر ، فناظرهم على متاع كان لهم ، ثم نهض المأمون لبعض حاجته ، ثم خرج ، فقام كل من كان فى المجلس إلا ابن الجعد ، فإنه لم يقم ، قال : فنظر إليه المأمون كهيئة المغضب ، ثم استخلاه ، فقال له : يا شيخ ما منعك أن تقوم لى كما قام أصحابك ؟ قال : أجللت أمير المؤمنين للحديث الذى نأثره عن النبى ﷺ ، قال : وما هو ؟ قال على بن الجعد : سمعت المبارك بن فضالة يقول : سمعت الحسن يقول : قال النبى ﷺ : « من أحب أن يمثل له الناس قيامًا ، فليتبوأ مقعده من النار »[2]، قال : فأطرق المأمون متفكرًا فى الحديث ، ثم رفع رأسه فقال : « لا يُشْتَرى إلا من هذا الشيخ » قال : « فاشترى منه فى ذلك اليوم بقيمة ثلاثين ألف دينار »)[3].

وقال أحمد بن على البصرى : (وجه المتوكل إلى أحمد بن العدل وغيره من العلماء ، فجمعهم فى داره ، ثم خرج عليهم ، فقام الناس كلهم إلا أحمد بن العدل ، فقال المتوكل لعبيد الله : « إن هذا الرجل لا يرى بيعتنا » ، فقال له : « بلى يا أمير المؤمنين ولكن فى بصره سوء » ، فقال أحمد بن العدل : يا أمير المؤمنين ما فى بصرى من سوء ، ولكننى نزَّهتك من عذاب الله تعالى ، قال النبى ﷺ : « من أحب أن يمثل له الرجال قياماً ،

---

(١) عزاه الألبانى فى « آداب الزفاف » ص (٢٠١) إلى الطبرانى ، وابن عساكر ، والمروزى فى « الورع » تعليقًا ، و « شرح السنة » .

(٢) أخرجه موصولًا البخارى فى « الأدب » رقم (٩٧٧) ، وأبو داود (٥٢٢٩) ، والترمذى رقم (٢٧٥٥) ، والإمام أحمد (٩٣/٤) ، وحسنه الترمذى ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (٣٥٧) .

(٣) « تاريخ بغداد » (٣٦١/١١) .

فليتبوأ مقعده فى النار » ، فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه)[1] .

وكان الإمام الجليل سفيان الثورى رحمه الله شديد الحياء ، وقال الإمام ابن مهدى رحمه الله : « ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه » ، ومع ذلك فكان فى مواقع الحمية والغضب لدين الله عز وجل لا يعرف الاستحياء فى الحق ، حتى قال يحيى بن أبى غنية : « ما رأيت رجلًا قط أصفق وجهًا فى الله عز وجل[2] من سفيان الثورى » .

وأنكر مرة على المهدى بعض الأمور ، واشتد فى الإنكار حتى قال له وزير المهدى : « شططتَ : تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا ؟ » فقال له سفيان : « اسكت ، ما أهلك فرعونَ إلا هامانُ » ، فلما ولَّى سفيان ، قال أبو عبيد الله : « يا أمير المؤمنين : ائذن لى أضرب عنقه » ، فقال له : « اسكت ، ما بقى على وجه الأرض من يُستحيا منه غير هذا » .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن مصعب : (أن رجلًا أعمى كان يجالس سفيان ، فكان إذا كان شهر رمضان ، خرج إلى السواد فيصلى بالناس ، فيُكسى ، ويوهَبُ له ، فقال سفيان : « إذا كان يوم القيامة ؛ أثيب أهل القرآن من قرآنهم ، ويقال لمثل هذا : قد تعجلت ثوابك » ، فقال له الرجل : « يا أبا عبد الله ، تقول هذا لى وأنا جليس لك ؟! » ، قال سفيان : « إنى أتخوف أن يقال لى يوم القيامة : إنه كان جليساً لك ، أفلا تنصحه ؟ » .

صور من الحياء المذموم :

ـــ أن تمد امرأة أجنبية يدها إلى رجل فيصافحها ، ويزعم أنه استحيا منها ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لأن يُطعَنَ فى رأس أحدكم بمخيط من

---

(١) أخرجه الدينورى فى « المنتقى من المجالسة » كما فى « السلسلة الصحيحة » (٤/٧٣) .

(٢) أى لا يجامل ولا يدارى غيرة على الدين .

حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له »[1].

ــ أن يُقرِض رجلٌ رجلًا مالًا وهو لا يثق بأمانته ، ويَوَدُّ أن لو أشهد عليه الجن والإنس ، ومع ذلك يستحيى أن يستكتبه الدَّيْن أو أن يُشهد عليه ، أو يمكِّن سفيهًا من ماله استحياءً منه ، فيبدده شذر مذر .

عن أبي موسى رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجابُ لهم : رجل كانت تحته امرأةٌ سيئة الخُلق فلم يُطَلِّقْهَا[2]، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشْهِدْ عليه[3]؛ ورجلٌ آتى سفيهًا[4] ماله ؛ وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاءَ أموالكم** ﴾)[5].

وقد طرح السلف الصالح الاستحياء فى مواطن إثبات الحقوق ، واستحسنوا ذلك :

لما لقى الإمامَ مالكاً تلميذُه الشافعيُّ بالمدينة، وأهداه مالك مالًا عظيمًا ، قال الشافعى : « إنك موروث ، وأنا موروث ، فلا يثبت جميع ما وعدتنى إلا تحت ختمى ليجرى ملكى عليه ، فإن حضرنى أجلى كان لورثتى دونك ،

---

(١) « رواه الطبرانى ، والبيهقى ، ورجال الطبرانى ثقات رجال الصحيح » كذا فى « الترغيب » (٦٦/٣) ، وقال الألبانى فى « الصحيحة » رقم (٢٢٦) : (هذا سند جيد) اهـ .

(٢) فإذا دعى عليها لا يستجيب له ، لأنه المعذب نفسه بمعاشرتها وهو فى سعة من فراقها ، ولا يفهم من هذا ندبه إلى تطليقها ، وإنما هو حث على عدم أذيتها بالدعاء عليها ، ببيان أنه لا يستجاب دعاؤه عليها .

(٣) يعنى : فأنكره ، فإذا دعى لا يستجاب له ، لأنه المفرط المقصر بعدم امتثال قوله تعالى : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم** ﴾ ، وهذا جزء من آية الدين وهى أطول آية فى القرآن الكريم ، وقد نزلت تبين الضمانات الكفيلة بحفظ مال المسلم ، رعاية لمصلحته .

(٤) أى محجورًا عليه بسفه « ماله » أى شيئاً من ماله مع علمه بالحجر عليه ، فإذا دعى عليه لا يستجاب له لأنه المضيع لماله فلا عذر له – وانظر فيض القدير (٣٣٦/٣) .

(٥) رواه الحاكم فى « المستدرك » (٣٠٢/٢) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، وانظر : « السلسلة الصحيحة » رقم (١٨٠٥) .

وإن حضرك أجلك كان لى دون ورثتك » ، فتبسم فى وجهى ، وقال : « أبيت إلا العلم » ، فقلت : « لا يُستعمل أحسنُ منه » ، قال الشافعى : « فما بِتُّ إلا وجميعُ ما وعدنى به تحت خاتَمى »(*).

* * *

(*) « رحلة الإمام الشافعى » ص (٢٦ - ٢٧) .

۞ الاستحياء من الله جل وعلا ۞

« الحياء خير كله » ، و « الحياء لا يأتي إلا بخير » ، لأن من استحيا من الناس لا يفعل ما يخجله إذا عُرف منه أنه فعله ، فكان من أعظم بركة الحياء من الناس تعويدُ النفس ركوبَ الخصال المحمودة ، ومجانبتها الخلال المذمومة . ومن استحيى من الناس أن يروه بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشدَّ ، فلا يضيع فريضة ، ولا يرتكب خطيئة ، لأن المؤمن يعلم بأن الله يرى كل ما يفعله ، فيلزمه الحياء منه لعلمه بذلك ، وبأنه لا بد أن يقرره يوم القيامة على ما عمله ، فيخجل ، فيؤديه إلى ترك ما يخجل منه ، وذلك هو الحياء ، فمن ثم لا يأتي إلا بخير .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : « استحيوا من الله حق الحياء » ، قالوا : « إنا نستحيي يا رسول الله » قال : « ليس ذاكم[1] ، ولكن من استحيى من الله حق الحياء : فليحفظ الرأس وما وَعَى[2] ، وليحفظ البطن وما حَوَى[3] ، وليذكر الموت والبلى[4] ،

---

(١) قال البيضاوي رحمه الله : (ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه ، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول) اهـ . نقلًا من « الفتح الرباني » (٩٠/١٩) .

(٢) ما جمعه من الحواس الظاهرة والباطنة حتى لا يستعملها إلا فيما يحل .

(٣) أي : وما جمعه جوفه باتصاله به من القلب والفرج واليدين والرجلين ، فلا يستعمل منها شيئاً في معصية الله عز وجل .

(٤) لأن من ذكر أن عظامه تصير بالية ، وأعضاؤه متمزقة هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة ، وأهمه ما يلزمه من طلب الآجلة ، وعمل على إجلال الله وتعظيمه .

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا[1]، فمن فعل ذلك[2] قد استحيى من الله حق الحياء »[3].

وعن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال : (قلت : يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » .

قلت : يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم فى بعض ؟
قال : « إن استطعت أن لا يرينَّها أحد فلا تُرِيَنَّها أحدًا » ،
قلت : « يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليًا ؟ »
قال : « الله أحق أن يستحيا منه من الناس »)[4].

فإذا حَرَّض ﷺ على الستر فى الخلوة تأدبًا مع الله عز وجل واستحياءً منه وهو أمر مختلف فى وجوبه أو استحبابه ، فكيف ينبغى أن يكون حياء الإنسان منه تعالى إذا فقده حيث أمره ، أو رآه حيث نهاه ؟

---

(١) لأنهما ضرتان إذا أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى ، فمن أراد الله تعالى فليرفض جميع ما سواه استحياءً منه ، بحيث لا يرى إلا إياه .

(٢) الإشارة إلى جميع ما مر ، فمن أهمل من ذلك شيئاً ، لم يخرج من عهدة الاستحياء .

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٨٧/١) ، والترمذى رقم (٢٥٨٨) وقال : (هذا حديث غريب) ، والحاكم (٣٢٣/٤) ، وصححه ، ووافقه الذهبى ، وحسنه الألبانى فى « صحيح الترمذى » (٢٩٩/٢) .
قال بعض العلماء : « يستحب لكل أحد صحيح أو مريض الإكثار من ذكر هذا الحديث بحيث يصير نُصْبَ عينيه ، والمريض أولى » .

(٤) رواه الإمام أحمد (٣/٥ ـ ٤) ، وأبو داود رقم (٤٠١٧) ، والترمذى (٢٧٩٤) ، (٢٧٦٩) وحسنه ، والحاكم (١٨٠/٤) ، وصححه ، ووافقه الذهبى ورواه البيهقى (١٩٩/١) ، وحسنه الألبانى فى « آداب الزفاف » ص (١١٢) ، وهو محمول على الندب والكمال ، وليس على ظاهره المفيد الوجوب ، والله أعلم ، وانظر : « فيض القدير » (٢٢٨/٢) حديث رقم (١٧٢٩) ، و « المجموع » (١٥٦/٣) .

قال كعب : « استحيوا من الله فى سرائركم كما تستحيون من الناس فى علانيتكم » .

وقد صرح الله عز وجل أن الحكمة التى خلق الخلق من أجلها هى أن يبتليهم أيهم أحسن عملًا .

قال العلامة القرآنى محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله : (.. إذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه ، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوى لان قلبه ، وخشى الله تعالى ، وأحسن عمله لله جل وعلا .

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التى خلق الخلق من أجلها هى أن يبتليهم أيهم أحسن عملًا ، ولم يقل : أيهم أكثر عملًا ، فالابتلاء فى إحسان العمل ، كما قال تعالى فى هذه السورة الكريمة : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملًا** ﴾ الآية .

وقال فى الملك : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا وهو العزيز الغفور** ﴾ .

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التى خلق من أجلها هى أن يُبتلى أى يُختبر : بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه فى هذا الاختبار ، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبى ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبى ﷺ فقال : (أخبرنى عن الإحسان ، - أى : وهو الذى خلق الخلق لأجل الاختبار فيه - فبين النبى ﷺ أن الطريق إلى ذلك هى هذا الواعظ ، والزاجر الأكبر الذى هو مراقبة الله تعالى ، والعلم بأنه لا يخفى عليه شىء مما يفعل خلقه ، فقال له : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »)[1].

(١) « أضواء البيان » (٣/٩ - ١٠) بتصرف .

هكذا فسَّر رسول الله ﷺ الإحسان تفسيرًا لا يستطيعه أحد من المخلوقين غيره لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم .

وقال أيضًا رحمه الله تعالى : [قوله تعالى : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

يبين تعالى فى هذه الآية الكريمة : أنه لا يخفى عليه شئ ، وأن السر كالعلانية عنده ، فهو عالم بما تنطوى عليه الضمائر، وما يعلن ، وما يسر ، والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً ، كقوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾ وقوله : ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ وقوله : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ الآية . ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى[1] .

تنبيه مهم

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر ، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها فى القرآن ، من أنه

---

(١) وما ذاك إلا لتربى قلوب المؤمنين على المراقبة عن طريق التعبد بأسمائه الحسنى : الرقيب ، الشهيد ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير ، فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة ، من مثل قوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شئ رقيبًا** ﴾ وقوله : ﴿ **والله على كل شئ شهيد** ﴾ أى يعلم كل شئ بالمعاينة والرؤية ، فكل شئ عنده مشهود ، وليس عليه غيب ، ولا يخفاه سر ، وقوله : ﴿ **والله بصير بما تعملون** ﴾ وقوله : ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾ ، وقوله : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ألا إنه بكل شئ محيط** ﴾ .

تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه ، رقيب عليهم ، ليس بغائب عما يفعلون . وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر ، والزاجر الأعظم مثلًا ليصير به كالمحسوس ، فقالوا : لو فرضنا أن مَلِكًا قتالًا للرجال ، سفاكًا للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا ، وسيافه قائم على رأسه ، والنِّطع مبسوط للقتل ، والسيف يقطر دمًا ، وحول هذا الملك الذى هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته ، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يَهمُّ بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه ، وهو ينظر إليه ، عالم بأنه مطلع عليه ؟! لا ، وكلا : بل جميع الحاضرين يكونون خائفين ، وجلةً قلوبُهم خاشعةً عيونُهم ، ساكنةً جوارحُهم خوفًا من بطش ذلك الملك[1].

ولا شك – ولله المثل الأعلى – أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علمًا ، وأعظم مراقبة ، وأشد بطشًا ، وأعظم نكالًا وعقوبة من ذلك الملك ، وحماه فى أرضه محارمه][2] اهـ .

لقد جعل الله عز وجل التزكية إحدى المهمات التى من أجلها بَعَثَ رسولَه ﷺ ، فقال سبحانه : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ .

وأقسم الله عز وجل أحد عشر قسماً على حقيقة واحدة هى قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ وبين أنه لا يدخل الجنة إلا نفس زكية طاهرة طيبة قال عز وجل : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم**

---

(١) ونظير ذلك ما استحدث فى المستشفيات والمصانع والمحلات التجارية حيث تبث الكاميرات التليفزيونية فى شتى المواقع لمراقبة العمال واللصوص ، الذين ينزجرون بذلك لاحتمال تسلط الكاميرا عليهم وبالتالى انكشاف أمرهم ، ولله المثل الأعلى .

(٢) « أضواء البيان » (٩/٣ – ١٠) بتصرف .

طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

فمن ثَمَّ رفع النبى ﷺ شأن تزكية النفس، فقال ﷺ : (ثلاثٌ من فَعَلَهن فقد طَعِم طَعْمَ الإيمان : من عَبَدَ الله وحده ، وأنه لا إلٰه إلا الله ، وأعطى زكاةَ مالِهِ طيبةً بها نفسُه رافدةً[1] عليه كُلَّ عام، ولا يُعطى الهَرِمَةَ، ولا الدَّرِنَةَ[2] ، ولا المريضة ، ولا الشَّرَطَ[3] اللئيمة[4] ، ولكن من وَسَط أموالكم[5] ، فإن الله لم يسألْكم خيرَه ، ولم يأمركم بشره)[6] .

زاد البيهقى فى روايته :«وزكَّى نفسَه ، فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان » قال الإمام محمد بن يحيى الذهلى : (يريد أن الله علمه محيط بكل مكان ، والله على العرش) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « لا يجد عبد صريح الإيمان حتى يعلم بأن الله تعالى يراه ، فلا يعمل سِرًّا يفتضح به يوم القيامة » .

وعن عبد الله بن دينار قال :

(خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرَّسنا ، فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراعٍ؟ قال : نعم ، قال : بِعْنى شاةً من الغنم ، قال : إنى مملوك ، قال : قل لسيدك : أكلها الذئب ، قال : فأين الله عز وجل ؟

---

(١) رافدة : فاعلة من الرفد ، وهو الإعانة ، يقال : رفدته أرفده إذا أعنته ، أى تعينه نفسه على أداء الزكاة .

(٢) الدرنة : الجرباء ، وأصل الدرن : الوسخ .

(٣) الشرَط : قال أبو عبيد : هو صغار المال وشراره ، وقال الخطابى : والشرط : رذالة المال .

(٤) اللئيمة : البخيلة باللبن ، ويقال : لئيم ، للشحيح ، والدنى النفس ، والمهين .

(٥) فيه دليل على أنه ينبغى إخراج الزكاة من أوساط المال ، لا من شراره ، ولا من خياره .

(٦) رواه أبو داود (١٥٨٢) بسند فيه انقطاع ، ووصله الطبرانى فى « الصغير » ص (١١٥) ، والبيهقى فى « السنن » (٤/٩٥) ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (١٠٤٦) .

قال ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعدُ ، فأعتقه !)[٧] وفى رواية : « فأعتقه ، واشترى له الغنم » .

وقال بعض أهل العلم : « من كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل ، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور » .

وفى قوله عز وجل : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ تنبيه على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيى من ارتكاب الذنـب .

ومن علم أن معبوده مشاهد لعبادته تعين عليه تزيين ظاهره بالخشوع ، وباطنه بالإخلاص والحضور ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصـدور .

قال ابن المبارك لرجل : « راقب الله تعالى » ، فسأله عن تفسيره، فقال : « كن أبداً كأنك ترى الله عز وجـل » .

وقال رجل للجنيد : « بم أستعين على غض البصر ؟ » فقال : « بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبقُ من نظرك إلى المنظور إليه » .

وقال حميد الطويل لسليمانَ بنِ عليٍّ : عظنى ، فقال :«لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت».

وعن محمد بن واسع قال : كان لقمان عليه السلام يقول لابنه :

« يا بنى اتق الله ، ولا تُـرِ الناس أنك تخشى الله عز وجل ليكرموك بذلك ، وقلبك فاجر » .

وعن الأوزاعى قال : سمعت بلال بن سعد يقول :

« لا تكن وليًا لله عز وجل فى العلانية ، وعدوَّه فى السر » .

---

(٧) انظر «مجمع الزوائد» (٣٤٧/٩) ، ونسبه للطبرانى ، وقال : (ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن الحارث الحاطبى ، وهو ثقة .

وعن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه** ﴾ قال : « هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه » .

وعنه رحمه الله قال : « من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، واختلاف السر والعلانية ، واختلاف الدخول والخروج » .

وقال فرقد: «إن المنافق ينظر : فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء ، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى » .

وراود رجل امرأة ، فقالت : ألا تستحيى ؟ فقال : لا يرانا إلا الكواكب ، فقالت : « وأين أنت من مُكَوكِبها ؟! » .

مَن عامَلَ الله بتقواهُ ... وكان فى الخلوات يخشاه
سقاه كأسًا من لذيد المنى ... يُغنيه عن لذةِ دنياه

آخر :

وإذا خلوتَ بريبة فى ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيانِ
فاستحيِ من نظر الإلٰه وقل لها ... إن الذى خلق الظلام يرانى

استوصى رجل بعض السلف ، فقال : « أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وتذكر قوله عز وجل : ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ » .

وإذا ما خلوت الدهر يومًا، فلا تقل
خلوت، ولكن قل : عَلَيَّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تُخْفِيهِ عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غداً للناظرين قريب

* * *

◘ خلوة الذين لا يستحيون من الله سبحانه ◘

أما الذين لا يستحيون من الله تعالى فى خلواتهم ، فإنه يبدو لهم - إذا وافَوْا يوم القيامة - مِن الله ما لم يكونوا يحتسبون :

عن أبى عامرٍ الألهانى رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (لأعلمن أقوامًا من أمتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تِهامةَ[1] بيضًا ، فيجعلها الله هباءً منثورًا ، قال ثوبان : يا رسول الله صفهم لنا ، جَلِّهم لنا ، ألَّا نكون منهم ونحن لا نعلم ، قال : أما إنهم إخوانكم ، ومن جِلدتِكم[2]، ويأخذون من الليل كما تأخذون[3]، ولكنهم أقوام إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها)[4].

وقال ميمون بن مهران : « علانية بغير سريرة مثل كنيف مزخرف من خارجه ، ومن داخله النتن والخبث » .

وكـم ذى معـاصٍ نـال منهن لذةً
ومـات فَخَلَّاهـا وذاق الدواهيـا
تَصَـرَّمُ لـذاتُ المعاصى وتنقضـى
وتبقـى تباعـاتُ المعاصـى كما هيا

---

(١) تهامة : اسم لكل ما نزل من نجد فى بلاد الحجاز ، ومكة من تهامة ، سميت تهامة من التَّهَم ، وهو شدة الحر ، وركود الريح .
(٢) أى من جنسكم .
(٣) أى لهم نصيب من التهجد وقيام الليل .
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) ، وصححه المنذرى فى « الترغيب » (١٧٨/٣) ، والبوصيرى فى « الزوائد » (٣٠٦/٣) .

فيــا سوأتــا والله راءٍ وسامـــعٌ
لعبـدٍ بعيـن الله يغشـى المعاصيــا

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته ، ولَمَا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك مِمَّن على اليمين وعلى الشمال – وأنت على الذنب – أعظم من الذنب الذى عملته ، وضَحِكُكَ – وأنت لا تدرى ما الله صانعٌ بك – أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب – إذا ظفرت به – أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب – إذا فاتك – أعظم من الذنب إذا ظفرت به ، وخوفك من الريح إذا حَرَّكت سِتر بابك – وأنت على الذنب ، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك – أعظم من الذنب إذا عملته »[1].

أستغفـــر الله ممـــا يعلـــمُ اللهُ
إن الشقِىَّ لَمَـنْ لا يرحـــمُ اللهُ
مـا أحلـمَ اللهَ عمـن لا يراقِبُــهُ
كـلٌّ مسـىءٌ ولكـن يَحْلُـمُ اللهُ
فاستغفـرِ اللهَ مِمَّــا كـان مِن زَلَلٍ
طوبـى لمـن كَـفَّ عمَّـا يكرهُ اللهُ
طوبـــى لمـن حَسُنَــتْ سَريرتُــه
طوبى لمـن ينتهى عمـا نهى اللهُ

❋ ❋ ❋

(١) « حلية الأولياء » (٣٢٤/١) .

۞ خلوة الذين يستحيون من الله جل وعلا ۞

عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: « ثلاث منجيات: خشية الله تعالى فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى » الحديث[1].

وكان ﷺ يقول فى دعائه : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك »[2] الحديث ، وكان يقول أيضاً : « وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة »[3].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال ﷺ : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينُه)[4].

(١) قال المنذرى فى « الترغيب » : (رواه البزار والبيهقى وغيرهما ، وهو مروى عن جماعة من الصحابة ، وأسانيده - وإن كان لا يسلم شىء منها من مقال - فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى) اهـ . (١٦٢/١) .

(٢) جزء من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، رواه الترمذى رقم (٣٤٩٧) وحسنه ، وابن السنى رقم (٤٤٠) ، والحاكم (٥٢٨/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٣) جزء من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه رواه الإمام أحمد (٢٦٤/٤) ، والحاكم (٥٢٤/١ ، ٥٢٥)، وصححه ، ووافقه الذهبى ، ورواه أيضًا النسائى (٥٥/٣) فى السهو .

(٤) رواه البخارى (٢٩٣/٣ - فتح) ، ومسلم رقم (١٠٣١) ، والترمذى رقم (٢٣٩٢) ، والنسائى (٢٢٢/٨ - ٢٢٣) .

وكان أبو عبد الله الأنطاكي يقول : « أفضل الأعمال ترك المعاصي الباطنة » ، فقيل له : « ولم ذلك ؟ » ، قال : « لأن الباطنة إذا تُرِكت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أترك » .

وكان أحد الزهاد يقول : « يا ويحي عاملت الناس بالأمانة ، وعاملت ربي بالخيانة ، فليتني عكست » ، ثم يبكي .

وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ : « هو الرجل يخلو بمعصية الله ، فيذكر مقام الله فَيَدَعها فَرَقاً من الله » .

وقال ابن الجوزي :(والرجل – والله – من إذا خلا بما يحب من المحرم ، وقدر عليه ، وتقلقل عطشًا إليه ، نظر إلى نظر الحق إليه ، فاستحيى من إجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش) .

وعن شقيق بن سلمة أنه تلا هذه الآية ﴿ **إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقيًا** ﴾ ، قال : « لقد عَلِمَتْ أن التقيَّ ذو نُهْيَة » .

وقال محمد بن الفضل : « ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله عز وجل ، وأربعين سنة ما نظرت في شيء أستحسنه حياءً من الله عز وجل » .

وقال أبو مسلم الخولاني : « من نعمة الله عَلَيَّ أنني منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يُستحيى منه إلا قربي من أهلي » .

وعن محمد بن سيرين أنه رحمه الله قال : « ما غشيت امرأة قط لا في يقظة ولا في نوم غير أم عبد الله ، وإني لأرى المرأة في المنام ، فأعلم أنها لا تحل لي ، فأصرف بصري » .

قال بعضهم : « ليت عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام ! » .

يقظاتـــه ومنامـــه شِرَعٌ ... كُـلٌّ بِكُـلٍّ فهـو مُشْتَبِـهُ
إن هَمَّ في حُلْمٍ بفاحشـةٍ ... زَجَرَتْـهُ عِفَّتُـهُ فينتبِـهُ

◘ المحسنون .. وعمل السر ◘

إن المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه عز وجل ، لم يكتفوا بتخلية خلواتهم عن المعاصى والمخالفات ، بل زينوها بالطاعات والقربات ، وعمروها بألوان العبادات ، امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ القائل : « من استطاع منكم أن يكون له خِبء من عمل صالح فليفعل »[1].

وبين ﷺ فضيلة عمل السر ، ومحبة الله عز وجل لأهله ، وذلك فيما رواه أبو ذر رضى الله عنه أنه ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يَشْنَؤُهم الله : الرجل يلقى العدوَّ فى فئة فينصُبُ لهم نحره حتى يُقتلَ أو يُفتحَ لأصحابه ، والقومُ يسافرون فيطولُ سُراهم حتى يُحِبُّوا أن يَمَسُّوا الأرضَ فينزلون ؛ فيتنحى أحدهم فيصلى حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجارُ يؤذيه جاره فيصبر على أذاهُ حتى يفرِّقَ بينهما موتٌ أو ظعن ، والذين يشنؤهم الله : التاجرُ الحلَّاف ، والفقير المختال ؛ والبخيلُ المنان)[2].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ :

(عجب ربنا من رَجُلين : رجل ثار عن وِطائه ولِحافه من بين حَيِّه وأهْلِه إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشَفَقًا مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله ، فانهزم مع أصحابه ، فعلم ما عليه فى الانهزام ، وما له فى الرجوع ، فرجع

---

(١) رواه من حديث الزبير الضياء كما فى « الجامع الصغير » ، وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢٤٠/٥) .

(٢) رواه الإمام أحمد (١٥٣/٥) ، والترمذى رقم (٢٥٦٨) ، وقال : « هذا حديث صحيح » ، وبنحوه الحاكم (٤١٦/١) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبى .

حتى أُهْرِيقَ دَمُه ، فيقول الله لملائكته : « انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، وَشَفقًا مما عندى حتى أُهْرِيقَ دَمُه »)[1].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال ﷺ : (حُرِّم على عينين أن تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس الإسلام وأهلَه من أهل الكفر)[2].

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يقول : « اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح ، كما أن لكم خبيئة من العمل السىء » .

وقال معاوية بن قرة : « من يدلنى على رجل يبكى بالليل ، ويتبسم فى النهار ؟ » يعنى أن ذلك قليل .

وعن الحسن عن سمرة بن جندب قال : « من سَرَّه أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده ، ومن سَرَّه أن يعلم مكان الشيطان منه فلينظره عند عمل السر » .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : « من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه ، واجتناب المعاصى ، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل » .

وقال سفيان بن عيينة : قال أبو حازم : « اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك » .

وقال سفيان الثورى : « بلغنى أن العبد يعمل العمل سرًّا فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه ، فيكتب فى العلانية ، ثم لا يزال الشيطان به حتى يُحِبَّ

---

(١) أخرجه البغوى فى « شرح السنة » (٩٣٠/٤) ، والإمام أحمد (٤١٦/١) ، وصححه ابن حبان (٦٤٣) ، وحسنه الهيثمى فى « المجمع » (٢٥٥/٢) ، وصححه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على « المسند » (٣٩٤٩/٦) .

(٢) رواه الحاكم (٨٣/٢) ، وحسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٨٩/٣) .

أن يُحْمَدَ عليه ، فيُنسخ من العلانية ، فيثبت فى الرياء » .

وقال أيوب السَّخْتِيانى : « والله ما صدق عبد إلا سَرَّه ألَّا يُشْعَرَ بمكانه» .

وقال أيضًا : « لأن يستر الرجل الزهد خير له من أن يظهره ».

وقال بشر بن الحارث : « لا أعلم رجلًا أحب أن يُعرف إلا ذهب دينُه وافتُضِحَ » وقال : « لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس » .

وقال الحارث المحاسبى رحمه الله : « الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله » .

ولقد حفلت سير السلف الصالح ومن سلك سبيلهم بنماذج رائعة من الاجتهاد فى عمل السر ، فهاك بعضها :

قال سفيان الثورى تلميذ منصور : « لو رأيت منصورًا يصلى لقلتَ : يموت الساعة » ، وقال زائدة بن قدامة تلميذه : (صام منصور أربعين سنة ، وقام ليلها ، وكان يبكى الليلَ كله ، فإذا أصبح كحَّل عينيه ، وبرَّق شفتيه ، ودهن رأسه ، فتقول له أمُّه : « أقتلت قتيلًا ؟ » أى لكثرة ما ترى من بكائه ووجله وعبادته لله تعالى فيقول : « أنا أعلمُ بما صَنَعَتْ نفسى ») .

و « كان ابن سيرين يضحك بالنهار ، فإذا جَنَّ الليل فكأنه قتل أهل القرية » .

وكان أيوب السختيانى يقوم الليل كله ، فيخفى ذلك ، فإذا كان عند الصبح رفع صوته ، كأنه قام تلك الساعة .

قال حماد بن زيد : « كان أيوب ربما حَدَّث بالحديث فيرق ، فيلتفت فيتمخط ويقول : ما أشد الزكام ! » يُظْهِر أنه مزكوم لإخفاء البكاء ، رجاء أن يكون ممن يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

فإذا فشل أحدهم باصطناع المرض لإخفاء الدموع فإنه يقوم خشية أن

يُكشف أمره ، قال الحسن البصرى : « إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته ، فيردها ، فإذا خشى أن تسبقه قام » .

وعنه أيضاً أنه قال : (إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْرُ وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه فى سر فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يُسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل ، ذلك أن الله تعالى عز وجل يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعًا وخفية** ﴾ وذلك أن الله تعالى ذكر عبدًا صالحًا ، ورضى قوله فقال : ﴿ **إذ نادى ربه نداءً خفيًّا** ﴾ .

وعن محمد بن زياد قال : رأيت أبا أمامة أتى على رجل فى المسجد ، وهو ساجد يبكى فى سجوده ، ويدعو ربه ، فقال أبو أمامة : « أنت أنت لو كان هذا فى بيتك ؟ » .

وقال محمد بن واسع : « إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة ، وامرأته معه لا تعلم به » .

وقال رحمه الله : « لقد أدركت رجالًا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالًا يقوم أحدهم فى الصف ، فتسيل دموعه على خده ، ولا يشعر به الذى إلى جنبه » .

وعن ابن أبى عدى قال : « صام داود بن أبى هند أربعين سنة لا يعلم به أهله ، وكان خرازًا يحمل معه غداه من عندهم ، فيتصدق به فى الطريق ، ويرجع عشيًّا فيفطر معهم » .

وعن القاسم بن محمد قال : (كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان

يخطر ببالي ، فأقول في نفسي : « بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ؟ إن كان يصلي إنا لنصلي ، وإن كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحج ، إنا لنحج » ، قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفيء السراج ، فقام بعضنا فأخذ السراج ، وخرج يستصبح ، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع ، فقلت في نفسي : « بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا ، ولعله حين فقد السراج فصار إلى ظلمة ذكر القيامة ») .

ثواب المحسنين :

هذا هو الإحسان ، وهؤلاء هم المحسنون الذين يود المجرم أن يعود إلى الدنيا لينضم إلى حزبهم ، قال تعالى : ﴿ **أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أن لي كَرَّةً فأكون من المحسنين** ﴾ لأنهم صفوة الله من خلقه : ﴿ **ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ .

هؤلاء هم المحسنون الذين يفوزون بمعية الله الخاصة قال تعالى : ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ، وقال جل وعز : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ **إن رحمت الله قريب من المحسنين** ﴾ ، هم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملًا** ﴾ وقال : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ **للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ ، هم الذين أمر تعالى نبيه أن يبشرهم : ﴿ **وبشر المحسنين** ﴾ .

﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ :

فهؤلاء المحسنون أخلصوا العمل لله ، وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه ، لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم ، ويرى حالهم ، ويسمع مقالهم ، فطرحوا

النفوس بين يديه ، وأقبلوا بكليتهم عليه ، والتجأوا منه إليه ، وعاذُوا به منه ، وأحبُّوه من كُلِّ قلوبهم ، فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره ، فبه يبصرون ، وبه يسمعون ، وبه يبطشون ، وبه يمشون ، وبرؤيتهم يُذكَر الله تعالى ، وبذكره يُذكَرون .

ذكروا الله تعالى فذكرهم ، وشكروه فشكرهم ، وتولَّوه ووالوا فيه فتولَّاهم ، وعادوا أعداءه لأجله ، فآذن بالحرب مَن عاداهم ، وأحسنوا عبادة ربهم فأحسن جزاءهم وأجزله ، عبدوه على قدر معرفتهم به فجازاهم بفضله : ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى** ﴾ وزادهم ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ والحسنى التى وعد الله المحسنين هى الجنة ، وأما الزيادة فهى النظر إلى وجه الله عز وجل كما رواه مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ .

فلما كانوا يعبدون الله عز وجل فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنهم يرونه بقلوبهم ، وينظرون إليه فى حال عبادتهم إياه كان جزاءَهم على ذلك النظرُ إلى وجه الله عز وجل فى الآخرة عِيانًا بأبصارهم .

وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فقال تعالى فيهم : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ لما كان حالُهم فى الدنيا التكذيب ، وأعقبهم ذلك التكذيب تراكم الرَّان على قلوبهم حتى حُجبت عن معرفته ومراقبته فى الدنيا ، فكان جزاءَهم على ذلك أن حُجبوا عن رؤيته فى الآخرة ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ .

* * *

◘ كيف يُكْتَسَبُ الحياء ؟[1] ◘

لو كانت الأخلاق صفاتٍ لازمةً تُخلق فى الإنسان ويُطبع عليها ، فلا يمكنه تغييرها ولا تبديلها ولا تعديلها كسائر صفاته الجسدية من طول وقصر ولون ، لما أمر الشرع بالتخلق بالأخلاق الحسنة ، والتخلى عن القبيحة ، فلو لم يكن ذلك ممكنًا مقدورًا للإنسان لما ورد به الشرع ، لأنه « لا تكليف إلا بمقدور » و « لا تكليف بمستحيل » ، قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكَّاها**[2] * **وقد خاب من دسَّاها** ﴾ ، وقال ﷺ : « إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يُعْطَه ، ومن يتوق الشر يوقَّه »[3]، لكن الناس يتفاوتون فى مقدار أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها ، فمن جُبِلَ على خُلُقٍ معينٍ يسهل عليه ترسيخ هذا الخلق فى نفسه ، لأن فطرته تعينه عليه .

وفيما يتعلق بخلق الحياء فقد قدمنا أن منه جبليًّا ومنه كسبى ، وهاك بعض الوسائل التى تعين على اكتساب الحياء ، وترسيخه :

أولًا : الإمساك عما تقتضيه قلة الحياء من أفعال وأقوال ، كالكلام الفاحش والبذىء ، مراغمة وإغاظة للشيطان الذى يزين هذه الأفعال ، ويُغرِى بها ، فإن هذا يؤيسه من التحريض عليها ، فيخنس ويخزى .

---

(١) انظر : « أصول الدعوة » للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٨٧ – ٩٥) .

(٢) ولم يقل عز وجل : « قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها » إشارة إلى أن المقصود بالعلم هو تزكية الأفعال بمباشرة الأعمال المحققة لزكاة النفس وتطهيرها ، وليس مجرد العلم النظرى .

(٣) أخرجه الخطيب فى « تاريخه » (١٢٧/٩) ، وحسنه الألبانى فى « الصحيحة » رقم (٣٤٢) .

ومن الأدب القرآنى فى هذا التكنية وعدم التصريح بالألفاظ التى تخدش الحياء إلا فيما لا بد منه لمصلحة شرعية .

ثانيًا : إدمان مطالعة فضائل الحياء ، وترديدها على القلب ، وجمع الهمة على تحصيل أعلى درجات الحياء ، والسعى الحثيث فى التحلى به .

ثالثًا : تقوية الإيمان والعقيدة فى القلب ، لأن الحياء ثمرة الإيمان ، ومعرفة الله عز وجل .

رابعًا : التعبد بالتفكر فى أسماء الله الحسنى التى تستوجب المراقبة والإحسان كأسمائه : الشهيد ، والرقيب ، والعليم ، والسميع ، والبصير ، والمحيط ، والحفيظ ، قال حاتم الأصم : (تعاهد نفسك فى ثلاث : إذا عملت فاذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك ، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك) .

خامسًا : المواظبة على العبادات المفروضة والمندوبة كالصلاة التى قال تعالى فى شأنها ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ ، وقد قيل لرسول الله ﷺ : « إن فلانًا يصلى الليل كله ، فإذا أصبح سرق ! » فقال ﷺ : « سينهاه ما تقول » أو قال : « ستمنعه صلاته »[1] .

وكالزكاة التى قال سبحانه فيها : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ .

سادسًا : لزوم الصدق وتحريه ، وتجنب الكذب لأن الصدق يهدى إلى البر ، قال ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة »[2] الحديث ، والحياء من جملة البر .

(١) رواه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه الإمام أحمد (٢/٤٤٧) ، والطحاوى فى « المشكل » (٢/٤٣٠) ، وغيرهم ، وصححه ابن حبان (٦٣٩ – موارد) ، وقال فى « المجمع » : (رواه أحمد ، والبزار ورجاله رجال الصحيح) اهـ . (٢/٢٥٨) .

(٢) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم رقم (٢٦٠٦) وغيرهما .

سابعًا : المواظبة على تكلف الحياء مرة بعد مرة حتى تألفه النفس ، وتعتاده ، ويصير لها طبعًا وسجية ، وهذا يستلزم التجمل بالصبر كالمريض الذى يصبر على تعاطى الدواء المر .

ثامنًا : مخالطة الصالحين ، ورؤيتهم ، والسماع منهم ، والاستمداد من حيائهم .

قال بعضهم : « أحى حياءك بمجالسة من يُستحيا منه » .

وقال مجاهد : « لو أن المسلم لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصى لكفاه » .

تاسعًا : استحضار حياء المثل الأعلى للبشرية رسول الله ﷺ ، ومطالعة سيرته العطرة ، وشمائله الكريمة ، ثم استحضار حياء صحابته رضى الله عنهم وسيرتهم سيما الخلفاء الراشدين ، والعشرة المبشرين بالجنة ، وأصحاب بدر ، وأصحاب بيعة الرضوان ، وسائر المهاجرين والأنصار ، ثم من تبعهم من أهل العلم والإيمان .

عاشرًا : اعتزال البيئة الفاسدة والموبوءة التى تصد عن الخلق الحسن[1]، والتنزه عن معاشرة قليلى الحياء ، والتحول إلى الصحبة الصالحة ، وفى حديث قاتل المائة أن العالم قال له : « .. ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها ناسًا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء .. » الحديث[2].

وهذا آخر ما تيسير جمعه فى هذا الباب .

ونستغفر الله عز وجل من كل ما زلَّ به القدم ، أو طغا به القلم ،

---

(١) وخصوصاً أجهزة الفساد السمعية منها والبصرية التى تنسف الحياء نفساً ، وتدمره تدميراً ، انظر رسالة : « الإجهاز على الفيديو والتلفاز » .

(٢) جزء من حديث رواه البخارى فى الأنبياء : باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ومسلم رقم (٢٧٦٦) فى التوبة : باب قبول توبة القاتل .

ونستغفره من أقاويلنا التى لا توافق أعمالنا ، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بباب الحياء مع التقصير فيه ، ونسأله أن يجعلنا بما علمناه عاملين ، ولوجهه به مريدين ، وألا يجعله وبالًا علينا ، وأن يضعه فى ميزان الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا ، إنه جواد كريم .

اللهم إنا نحب طاعتك ، وإن قصَّرنا فيها ، ونكره معصيتك ، وإن ركبناها ، فتفضل علينا بالجنة ، وإن لم نستحقها ، وخَلِّصْنا من النار ، وإن استوجبناها .

يارب إن عَظُمَتْ ذنوبى كثرةً فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ فمن الذى يدعو ويرجو المجرِمُ
أدعوك يارب كما أمرتَ تضرعًا فإذا رُدِدْتُ فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلةٌ إلا الرجا وجميلُ عفوِكَ ثم إنى مُسْلِمُ

اللهم صلِّ على محمد عبدِك ورسولِك النبيِّ الأمى ، وعلى آل محمدٍ وأزواجه وذريته ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد النبى الأمى ، وعلى آل محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد ، والحمد لله رب العالمين .

الإسكندرية فى
الأحد ٨ ربيع الأول ١٤١٣هـ
الموافق ٦ سبتمبر ١٩٩٢م

* * *

◘ الفهـرس ◘

تم بحمد لله تعالى وتوفيقه

* * *

العرمين ت. ٨٢٠٣٩٢ القاهرة